

قصص

سفن

قديمة



إبراهيم عبد المجيد



سفن قديمة

قصص قصيرة

إبراهيم عبد المجيد

المحتويات

٤	تحت المظلة (٢٠٠٠).....
١٩	رؤى البحر
٤٣	مشكلات الجلوس
٥٢	مسحوق التمساح
٨٠	حامل كتاب السحر
٨٩	الطريق إلى العشاء
٩٩	صائد المجانين
١١١	تمارين على الأحلام.....
١١٨	الطريق والنهر
١٢٣	الضربة القوية
١٢٨	سماء زرقاء وبحر من اللازورد.....
١٤٠	سفن قديمة

تحت المظلة (٢٠٠٠)

الوقت ليل. من المؤكد أن هذا هو سبب خلو الشارع من الناس، إنه ينتظر المركبة الأخيرة، لن ينتظر طويلاً، عشر دقائق وإذا لم تصل سيستقل أول تاكسي، الوقت برد، هذا سبب آخر لاختفاء الناس. الناس يختفون كثيراً هذه الأيام، الأسبوع الماضي استيقظ من نومه على صوت ضجة كبيرة، فتح باب الشقة فرأى عدداً من الجيران يحملون الأمتعة والأثاث يشاركونهم عدد من الحمالين المحترفين، وينزل الجميع درج المنزل آخذين طريقهم إلى الشارع، أطل من الشرفة ليرى الشارع فرأى فيه عدداً كبيراً من سيارات النقل تقف منتظرة في صف واحد طويل، والناس الذين يحملون الأمتعة والأثاث، من عدد كبير من البيوت، يضعونه، فوقها، ثم رأى أن عربات النقل تزداد مع تقدم النهار، وتقف أمام كل البيوت تقريباً، وعشرات الرجال والنساء، كهولاً وشباباً، يشاركونهم الأطفال أيضاً، يحملون الأمتعة والأثاث، لقد وقف في الشرفة حتى انتصف النهار؛ ليتأكد من أن ذلك ليس

بالحلم، لم يذهب إلى عمله ذلك اليوم إلا بعد أن رأى الناس
تبكي وهي تودع بعضها قبل أن تتطلق السيارات هادرة في
الشارع الواسع ثم ما تلبث أن تتفرق عند أول مفترق طرق
وتتلاشى، لقد وصل إلى العمل مع موعد انصراف زملائه
فلم يصعد إليهم، ومشى يتسكع في الشوارع شبه الخالية. لم
يحدث زلزال ولم تقم حرب ولم تحتل البلاد دولة أخرى
فلماذا يرحل الناس؟ وأين يذهبون؟

وانتظر أن يتحدث أحد من زملائه في ذلك فلم يحدث،
لكنه لاحظ ازدياد الصمت، بل الوجوم، اضطر هو أن
يحدثهم عما رأى أمس فهزوا أكتافهم غير مصدقين، سكتوا
ولم يعلقوا بكلمة، وبومًا بعد يوم لاحظ أن عددًا من زملائه
وزملائه لم يعودوا يأتون إلى العمل، وحينما مر على مكاتب
الإدارات الأخرى لاحظ التناقص الشديد في عدد الموظفين
حتى صارت بعض المكاتب خالية لأول مرة لا يجلس خلفها
أحد بعد أن كان المكتب الواحد يجلس إليه اثنان وثلاثة..
وظهرت أيضاً مقاعد كثيرة خالية بعد أن كان الموظفون
يتسابقون في الحضور مبكرًا للفوز بمقعد.. كان الذي يفوز
بمقعد يجلس فوقه ولا يتركه إلا آخر اليوم. كل ذلك لاحظته

في الأيام السابقة، من الطبيعي إذن أن يكون وحده الآن تحت المظلة في الليل في عز البرد.. لكنه لا يشعر بالبرد. الحقيقة أنه يشعر بالحر منذ لحظات والليل الأسود يتلاشى الآن شيئاً فشيئاً. النهار يأتي مبكراً ست ساعات كاملة عن مواعده، ساعته لا تزال عند الثانية عشرة، لكن الحرارة تشتد. لعلها الثانية عشرة ظهراً لعله يقف بالنهار منذ البداية، وكل ما حدث هو أنه أغمض عينيه لبعض الوقت فبدا الأمر وكأنه بالليل، لقد كان الظلام في عينيه والبرد في قلبه، لقد كان خائفاً، والخائف لا يعرف الليل من النهار، دائماً هو خارج الوقت، بالضبط مثل رجل مد قدمه ينزل من الرصيف إلى الشارع فنزل لكنه لم يجد الشارع ولم يستطع العودة إلى الرصيف، ظل معلقاً فوق الأرض بعيداً عنها بشبر واحد، وينكمش ويقل حجمه، ولو كان يدري مصدر خوفه ربما حاول أن يتغلب عليه، والحقيقة أنه متجمد في مكانه، فالرجل الذي مر أمامه منذ قليل، ووقف على الرصيف الثاني يضحك ما لبث أن أخرج سكيناً من تحت ثيابه لمعت في الفضاء وهو يرفعها على مهل يقطع بها رقبته، انتحر أمام عينيه وانفصلت رأسه عن جسده، وتدحرجت إلى زقاق اختفت فيه،

بينما مشى جسده بلا عنق إلى زقاق آخر دخله على مهل، ولم يترك الحادث فوق الأرض نقطة دم واحدة، والمرأة الجميلة التي كانت تأتي من نهاية الشارع، وقفت على الرصيف المقابل، وخلعت ملابسها كاملة وراحت تشير إليه بيديها، فوجد نفسه يعبر الشارع متجهاً إليها مخدراً سكران، حتى إذا وقف أمامها وجدها الرجل الذي قطع بنفسه رقبتَه منذ قليل واقفاً يتنسم بخبث، فعاد مسرعاً إلى مكانه تحت المظلة وجسده كله ينتفض، ولم ينشله من الرعب غير المظاهرة الضاحكة التي مرت أمامه، مظاهرة كاملة من الأطفال العراة نظيفة أجسامهم، نبتت في ظهورهم أجنحة كيوبيد كأنهم خرجوا من صور رسامي عصر النهضة، لكنهم يرفعون لافتات صغيرة بيضاء مكتوب عليها بالأسود «أنقذوا الأيتام» بالعربية والإنجليزية، في الوقت الذي لا يتوقفون فيه عن الضحك.

واحد منهم ألقى إليه بلافتة فرفعها مشاركة لهم وتحية، وبعد أن مروا حلق في اللافتة فوجدها بيضاء. لكن ذلك لم يجعله ينسى أنه بالفعل يتيم؛ فلقد مات والده منذ زمن بعيد، ويعيش في الشقة وحده بلا زوجة أو ولد، والآن يعيش

وحده في البيت كله، بل في الشارع، وغداً سيكون وحده بالمدينة، وهو وحده الواقف الآن تحت المظلة، فهل سيكون وحده في سائر أنحاء البلاد؟ هل سيكون وحده في الوطن كله؟ لقد عادت مظاهرة الأطفال بعد أن وصلت إلى نهاية الشارع، وما كادت تقترب حتى امتلأ بالرعب من جديد وهو يراهم وقد تحولوا إلى كباش فرعونه صغيرة، كباش تمشي على أربع مثل أي كباش، لها رأس الحمل الوديعة، وجسم الأسد القوي، وصارت اللافتات الآن معلقة في أعناقها ولم يعودوا يضحكون بل يرى الدموع تترقرق نازلة من عيونهم وهم يمرون من أمامه لا يلتفتون إلى وجوده، حتى إذا وصلوا إلى الشارع البعيد المتعامد مع الشارع الذي يقف فيه، وجد المباني التي على ذلك الشارع قد اختفت، وظهر خلف الشارع ماء عريض أزرق وموج، والكباش تصعد سوراً منخفضاً يفصل بين الشارع والبحر، ثم تقفز في الماء، الواحد خلف الآخر، وتستغرق وقتاً طويلاً، ولا يعود أي منها للظهور حتى اختفت. لم تخف المياه ظل البحر المفاجئ في مكانه وارتفعت أمواجه لكن لا هواء يأتي يرطب الفضاء، هل يقف حقاً في القاهرة؟! لا بد أنه سافر إلى الإسكندرية.

لكن هل كان ممكناً أن ينسى؟ كيف إذن نشأ البحر الآن؟. الإسكندرية. الإسكندرية. الإسكندرية. هل يبكي من أجل أن تسمعه؟. هل تسمعه؟ إنه يمد يديه ليلحق بها وهي تمشي أمامه فوقها غيوم بيضاء وتحرسها طيور جارحة تمنع الغرباء من دخولها تقذفهم بحجارة من نار، ولم يعد الموج يرتفع أمامه ولا يقذف بالماء، هدأ تماماً وسكت كل شيء في الفضاء لحظات قصار ثم إذا بصوت سنايك الخيل يرتفع قادماً من بعيد، سنايك قوية وضربات منتظمة سريعة، أي خيل تلك التي تعدو بعيداً وصوتها يقترب؟ لقد انشق الفضاء في نهاية الشارع، عن حصان أبيض عالٍ، طويل السيقان يأتي كالسهم يترك خلفه صوت ضربات سنايكه في الأسفلت تملأ الهواء كما لو كان جيشاً كاملاً من الفرسان هو الذي يتقدم عدواً، لقد أحدث مروقه في الهواء احتكاكاً يصم الأذن، وطار حوله شرر، سببه الاحتكاك بجدران الهواء الخفية! لعله هو نفسه حصان من نار لقد وصل إلى البحر فجأة. وجده أمامه فجأة؛ لأنه توقف رافعاً قدميه الأماميتين صاهلاً صهيل الرعب، لقد تطاير الشرر من تحت قدميه الخلفيتين وهو يتشبث بهما في الأرض، لكن السرعة التي كان يجري

بها خذلته، انقلب في الماء وأحدث اصطدامه دويًا، وارتفعت المياه لأمتار، وسمعت أصوات الدوامات المائية وهي تأخذ الحصان وتغوص إلى الأعماق.. يا الله. عاد السكون وهذه المرة عاد كل شيء كما كان. المباني العالية على جانب الشارع عادت إلى مكانها وامتألت شرفاتها بالزينات والأضواء والبنات والنساء الجميلات، صدحت الموسيقى فملأت الفضاء الذي بدا له قد امتلأ بعرائس من خيال ترقص في ثياب من أشعة قوس قزح، كانت كل النساء والفتيات في الشرفات يلوحن إليه بالمناديل الملونة كأنما يعرفه جميعًا من قبل، ولم يعد الشارع خاليًا كما كان، بل لعله لم يكن خاليًا قط، لقد كانت ظنونًا ورؤى لا أكثر. أجل كل ما رآه الآن كان ظنونًا ورؤى. وإنه ليعرف من زمان أنه قريب من الجنون، فمجازيب الشوارع دائمًا يتركون طريقهم وينحرفون إليه يصافحونه بلا سبب مفهوم، لعله كان معهم قبل أن يولدوا جميعًا، لعله عاش معهم حياة أزلية، وسيعود ليعيش معهم حياة أبدية، وغير هؤلاء المجانين فهو لا ينسى أنه كثيرًا ما كان يفتح شرفته ليجد فيها أسدًا قابعًا ينظر إليه، ولا يدخلها إلا بعد أن يغلقها، ثم يعود يفتحها من جديد، فيختفي

الأسد، هو إذن الذي يصنع ما يرى، ألا يصنع النساء
الجماليات يعاشرهن في الخيال حين نعر النساء الحقيقيات في
الأيام الأخيرة من الشهر؟ هو هو الذي يصنع ما يرى لكن
يا إلهي ما الذي يلقي بالنساء والفتيات هكذا فجأة من
الشرفات والنوافذ، عشرات منهن يلقي بهن فجأة وفي وقت
واحد ثم تغلق النوافذ والشرفات في لحظة واحدة، ليس هو
الذي يصنع ما يرى فما هي عربات الأسعاف تأتي من نهاية
الشارع صارخة أصواتها، ليس لها سارينة، بل صوت
الجرس القديم. إنها عربات إسعاف قديمة مضى عليها نصف
قرن أو يزيد، ذلك كان وقت الجرس! لكنها عربات إسعاف
حقيقية توقفت ونزل منها رجال في معاطف بيضاء وفوق
وجوههم أقنعة واقعية من الغاز والتلوث، وراحوا يجمعون
الجثث فوق المحفات وينقلونها داخل عربات الإسعاف، لقد
ارتفعت في الهواء رائحة منفرة؛ إنها رائحة الجثث، ذلك ما
جعل رجال الأسعاف يرتدون أقنعة الغاز، الجثث قديمة إذن،
والنساء والفتيات لم يلقَ بهن الآن، بل منذ أيام سابقة، هو
يقف منذ أكثر من يوم، لم يعد يذكر، لقد اختفت عربات
الإسعاف وحملت معها جثثاً أخرى قديمة ظهرت ملقاة في

الأركان، ورأى على الجدران آثار دخان وقذائف، إنه في الحقيقة يقف في مدينة تعرضت للحرب وما هو طابور من الجنود يأتي من نهاية الشارع، جنود يحملون بنادق طويلة وثيابهم ممزقة فوق أكتافهم وركبهم ويتقدمون في صمت رعوهم إلى الأرض مطرقين مثل أي جنود مهزومين لقد تأكد له الآن أنه يقف في ميدان حرب حقيقي، فالجنود يخرجون من أكثر الأزقة ينضمون للطابور الذي طال كثيرا، ورأى أغلبهم حفاة، ربما لذلك لا يسمع صوت أقدامهم، وعلى وجوههم غبار وتعب، لكن من هم هؤلاء الضباط الذين يحيطون بهم، هؤلاء الذي في وجوههم شراسة ويرتدون الزي النازي ويصرخون في الجنود بالألمانية، حتى انتظمت خطوات الجميع، وانتظم طابورهم، ثم راحوا ينشدون بلغة غير معروفة ، وبحروف مندغمة، وارتفع النشيد في الفضاء، ومعه رأى الضباط يكون بينما راح الجنود يضحكون.. بل وظهر طابور آخر قادم من الشارع المقابل، طابور المجندات يتقدمن ضاحكات، حتى إذا اقترب الطابوران من بعضهما ذاب الجنود في المجندات، وانفرد كل جندي بواحدة ، أسندها إلى الحائط وراح يضغط عليها، لقد

حطت فيهم العافية هم الذين كانوا متعبين منذ قليل، بينما انسحب الضابط إلى الرصيف، وجلسوا مغموين مستمرين في البكاء، لقد ضحك هو. أمسك بنفسه ضاحكاً لأول مرة تحت المظلة، لكن الضابط لم يعطوه الفرصة ليضحك أكثر، نهضوا كالمجانين، وسحبوا رشاشات صغيرة من أجنادهم، وراحوا يطلقون النار بغزارة على الجميع فانفجر الدم والفزع والصراخ الذي صار له لون أحمر أيضاً، الفضاء كله صارت له ألوان، الشعر الأصفر للمجنونات والعيون السوداء والزرقاء والخضراء والأجساد البيضاء والحمراء والدم الأسود والدم الأحمر، ودم غريب أزرق يمشي على الأرض وأشعة الشمس البيضاء وأشعة الشمس الذهبية تجري بين كل الألوان فتقيم مهرجاناً غريباً لا تنقصه غير الموسيقى التي سرعان ما أقيمت من الناحيتين أصوات لم تتضح بعد أصاخ لها الضباط السمع ثم ألغوا أسلحتهم وانسحبوا بعيداً وعند نهاية الشارع اختفوا ولم يعد هناك جنود ولا مجنونات، وجرى الهواء في الشارع، والشمس أرسلت حزمة ضوء خاصة سكنت فيه، فصار بهاء كله، والأصوات صارت تقترب من الناحيتين، لم تتضح بعد لكنها عريضة قوية، ولما

اقتربت صارت مثل الرعد، ورغم أنها بالعربية لم يفهمها، لكن بدا له الجميع معذبين في جلابيهم البيضاء؛ إذ يرفعون الكتب إلى أعلى مكان يصلونه بأذرعهم، وفي المقابل فأولئك الذين كانوا في الجلابيب السوداء على وجوههم نفس العذاب ويرفعون كتباً أخرى، الجلابيب البيضاء قصيرة والجلابيب السوداء سابعة، وخلف الرجال النساء يضربون الدفوف، وبدا أن الجانبين إذا التقيا سيصطدمان صداماً مروعاً، لكن صوت طلقات رصاص ومدافع دوى في الفضاء فوق الرعوس، فجرى الفريقان كل منهما إلى الآخر، وتدخلوا واختلطوا، ثم بدعوا بهتفون هتافاً واحداً غير مفهوم أيضاً، ولا تزال أذرعهم مرفوعة بالكتب المجلدة، فصار من الصعب أن تميز أي كتب يحملها كل فريق، لكن صوت الرصاص لم ينقطع والذي حدث أن جميع الكتب طارت من أيديهم مرتفعة في الفضاء، ترفرف صفحاتها في أصوات فرح عجيب، وهم يتابعونها في حسرة فهي لا تسقط أو تعود، بل تمضي صاعدة إلى الأعالي تاركة الحزن يشدهم إلى الأرض التي جلسوا عليها محبطين تلفهم الحشرات ثم انخرطوا في البكاء والنشيج، وتوقفت النساء عن ضرب الدفوف لكن صار

الجميع فجأة طيورًا ارتفعت حلقة في السماء تلحق بالكتب،
طيور بيضاء وطيور سوداء تتداخل في الفضاء وتصنع
تشكيلات سهمية سريعة تعرف هدفها ثم تختفي كما اختفت
الكتب من قبل ولا يبقى في الدنيا إلا هو تحت المظلة بالليل،
الليل، لم يكن يقف بالنهار إذن، من أين أتى كل ذلك
الضوء؟. أيكون هو الذي أصيب بالعمى؟. لكنه يرى هيك
نظارته، بالعجائب هذه الليلة، هذا النهار، هذا الزمن الذي
أمضاه تحت المظلة، لماذا حقًا لا يفكر أن يتحرك من مكانه
ينقذ نفسه، لكن هل يستطيع؟ من ذا يترك مكاناً كهذا؟ لقد
أضاءت المصابيح على جانبي الشارع والمطر الخفيف الذي
كثيراً ما يظهر في هذا الوقت من العام بدأت ترسله السحب
تحت السماء لكنه سرعان ما صار ثقلاً. هذا المطر يعوق
رغبته في ترك المظلة، توالى الزخات متتابعة وعنيفة
والشارع امتلأ بالمياه والأسطح راحت تطرد ما تجمع فوقها
من الميازيب الطويلة لكن ما هذا الصوت؟ ليس بصوت
رعود، إنه صوت كالطبل، صوت أجنحة ترفرف بقوة. إنها
الطيور التي صعدت خلف الكتب منذ قليل تعود مسرعة،
الطيور البيضاء والطيور السوداء تهوي مرفوفة بأجنحتها

بقوة وحين تقترب من الأرض يلمح خيوطاً من الدم على أعناقها، إنها تسقط في الماء بلا حركة، تقفز مرة أو مرتين ثم تسكن والماء الجاري في الشارع لا يتوقف ويحملها إلى بعيد لكنها لم تعد فقط طيوراً بيضاء وطيوراً سوداء، صارت هناك طيور زرقاء، وطيور حمراء، وطيور رمادية، وطيور صفراء، وطيور خضراء، وطيور ذهبية، لقد صعدت الطيور السوداء والبيضاء وعادت بكل الطيور التي في الفضاء والشتاء العزيز يحملها جميعاً إلى بعيد وهو كالطفل الباكي يريد أحداً يحمله الآن إلى أي مكان فيه يمكن أن ينام، وها هو التاكسي الذي ينتظره منذ عشرات السنين يأتي وسط الماء على مهل! تاكسي أسود عريض قديم من أوائل صناعة شركة فورد يتخبط على الأرض وسط الماء، إنه يعرف هذا التاكسي جيداً ويعرف سائقه، وخطر له أنه لا يعرف بالضبط عمره، لا يمكن أن يكون في الأربعين، لقد اقترب من المائة وإلا كيف يعرف هذا التاكسي ويعرف سائقه، ودون أن يشير إليه توقف أمامه، وتقدم وقبل أن يمد يده إلى الباب انفتح ودخل وجلس جوار السائق وتحرك التاكسي في صمت جليل. لم يتكلم السائق ولم يتكلم هو ولا نظر أحد إلى الآخر

بعد، ولما آن أوان النظر إلى السائق، رأى وجهه وجه عجوز، وجه صبي، وجه قاتل محترف، وجه امرأة، وجه طفل، وجه أسد، وجه كبش، وجه ضفدع، وجه أبيه، وجه أمه، وجهه هو، أجل. كما لو كان ينظر في المرآة، ونظر إلى المرأة التي أمامه ليرى المظلة التي صارت خلفه ويرى نفسه تحتها لا يزال واقفاً. لعله شخص آخر أخذ مكانه، لا يشبهه إلا هذا السائق العجوز الذي يعرفه منذ زمن لم يعد يذكره لكن الوجه مركب على عنق لا يتصل بجسد، والسيارة تمشي وحدها وخلف مقودها هذا الرأس المجزوز تتدلى من عنقه قطعة من المرئ والقصبه الهوائية، ولذوله نظر إلى نفسه فوجد جسمه بلا رأس، وهكذا كان عليه ببساطة أن ينتقل من مقعده ليحتل مقعد السائق واصلاً جسده الذي بلا رأس بالرأس التي تشبهه بلا جسد ويمد يديه إلى مقود السيارة يقودها بنفسه ويتأكد أنه قادر على قيادتها..

في مثل هذه الحالات ينفجر الإنسان بالبكاء من فرط الفرح، حتى لو لم يكن يدري أن السيارة المتهاكة التي تمشي ببطء، في الحقيقة تمشي بإصرار، وتعرف طريقها إلى نهاية الشارع الذي ظهر فيه البحر من جديد...

رؤى البحر

(١)

انحسر الماء فارتفعت الرمال وملأت الفضاء آلاف
الصخور المبعثرة صغيرة عند الشاطئ، كبيرة كلما اقتربت
من خط الأفق، تحيط بها، وتتبت من قلبها، نباتات غريبة،
وتزحف بينها وحولها، الأسماك عديدة الألوان والأشكال
مصابة بكهرباء شيطانية، في الوقت الذي انتصبت فيه في
أكثر من موضع، أعمدة رومانية عليها نقوش ماحلة حروفها
التي لم تعد بارزة، كما ظهرت من بعيد بقايا سفن قديمة
سوداء أخشابها زلقة نمت فوقها الطحالب المائية.

لم يقف أي شخص على الشاطئ صارخاً، لم تنصب
الدهشة خيمتها على وجه أحد، هو وحده الذي رأى.

المصطافون يجلسون تحت الشماسي، أمامهم، وتحت
أرجلهم في الغالب، الأطفال يحفرون حفراً صغيرة، يملئونها
بالماء الذي ينقلونه إليها بالدلاء البلاستيكية، يدخل الأطفال
إلى الماء فتجري خلفهم عيون الآباء والأمهات، والبحر

هادئ ينسطح ماؤه باتساع مريح للنظر، ويتحرك حركة مخملية عذبة، وفيه توزع الشباب والفتيات والصبية جماعات صغيرة، تلعب الكرة بسلاسة، أو تتسابق في السباحة وطول النفس.

فوق الجميع فضاء أبيض واسع، تصعد فيه الشمس قوية إلى منتصف السماء، فتزيد من اتساع الكون وبهائه والمرأه الشابة الجميلة، التي ترتدي الفستان الليموني الخفيف الفضفاض، كثير الدانتيل عند الذيل وحول الصدر الواسع والكمين القصيرين الواسعين، والتي تسرع حافية يسبقها ويحيط بها الأطفال، قد ابتعدت الآن مع امتداد الشاطئ ناحية اليسار.

لقد قال لزوجته حين رأى المرأة تمر من أمامه:

- لا يزال الوقت مبكراً لضياح الاطفال.

لكن زوجته أخرجت من حقيبتها المعلقة على جانب «الشيزلونج» التي تجلس فوقه، نظارتها السوداء.

الشمس ليست أمامها، الشمسية كبيرة والظل يحيط بهما، يعرف أنها تغالب الدموع، أحس بحاجة إلى النهوض من

مكانه قليلاً، في الليلة الأولى لوصولهما منذ أسبوع، عضه الجوع في وقت متأخر، كان قد اشغل طويلاً مع زوجته في تنظيف الشقة المغلقة طول العام، نامت هي حين انتصف الليل، وظل هو كعادته لا يستطيع النوم حين يغير مكانه إلا بعد مضي ليلة وأحياناً ليلتين في المكان الجديد..

لا بد أن المخبز الأفرنجي في الشارع القريب لا يزال موجوداً، قال لنفسه تلك الليلة وغادر الشقة بهدوء، لم يكن أحد في الشارع، وجد المخبز مغلقاً فمشى إلى مخبز آخر، لم يقابله أحد أيضاً، على غير العادة في ليالي الصيف، وعلى غير العادة أيضاً هبت نسمة باردة للحظات، لماذا حين يشيع البرد يصبح الكون عميقاً؟ وسمع ضحكة صافية تأتي من إحدى الشقق العالية بصوت نسائي بديع وسمع صرخة تمر من حوله، ثم سمع هدير أقدام تجري، رآه خارجاً من زقاق ضيق ومظلم وخلفه الآخر يحمل سكيناً طويلاً يلمع في يده ثم سمع صرخة مكتومة ولاحظ أن الشارع كبير لا تضيق كل مصابحه، انهار الأول فوق الأرض واندفع الآخر إلى زقاق جانبي استدار هو بلا خبز، تمدد جوار زوجته مرهقاً، ونام وعلى غير عادته، في مكان جديد.

(٢)

قبل أن ينهض من جوار زوجته تذكر أنه قرأ يوماً عن جزيرة في إحدى المحيطات تظهر ستة أشهر، ثم تغيب ستة أشهر، بكل ما فيها، ثم تعود للظهور.

لقد حاول - لا يدري لماذا - أكثر من مرة اليوم أن يسترق السمع لحديث المرأتين اللتين تجلسان تحت الشمسية المجاورة ولم يفلح في التقاط كلمة مما تقولان، تتحدثان بسرعة وحماس وصوت خفيض وهذه موهبة لم يصادفها من قبل، اكتفى بالفرجة خلسة على الراحة والسعادة التي تنطلق من وجهيهما حين تضحكان بين لحظة وأخرى، ومتابعة نظراتهما إلى الماء حيث ثلاث فتيات جميلات يلعبن بالكرة ووسطهن يتحرك في حيرة صبي يحاول التقاط الكرة التي يتقاذفها بينهن فيضحكن من حيرته وعذابه، الفتيات المراهقات يرتدين المايوهات وتبدو أجسادهن اللامعة قوية لدنة متماسكة مثيرة لكهل مثله. ولأنهن يقفن في الماء قريباً

من الشاطئ بدت سيقانهن القوية مثل أعمدة مرمرية. لكنه كان قد، نهض، ووجد نفسه يمشي إلى بائع الآيس كريم الذي لم يكن يقف أمامه أحد.

- لوليتا.

نظر إليه الرجل في استغراب فاتحاً فمه بابتسامة واسعة، مظهرًا أسناناً غير منتظمة، أدرك أن هذا النوع الجديد من الآيس كريم الذي تملأ الإعلانات عنه التلفزيون، نوع مخصص للأطفال، لم يتراجع، تناول قطعة الآيس كريم المتجمدة في الكيس البلاستيك الصغير الرفيع، وطلب قطعة أخرى، ثم عاد إلى زوجته باسمًا، قبل أن يصل إليها أعطى القطعتين لأول طفل قابله. أمام زوجته وقف وسألها:

- ألن تنزلي إلى البحر اليوم؟

- لن أنزل، وربما آخر النهار.

- لكنك دائماً تحبين النزول قبل الظهر.

- كان هذا في العام الماضي.

ابتسم وقال:

- حقاً، نحن في عام جديد الآن وعلينا أن نغير عاداتنا!

كانت تعرف أنه يغيظها بتعليقه، وكان يعرف أنها تعرف ذلك، فأسرع بالنزول في الماء. غطس غطساً طويلاً ووقف ينظر إليها. كانت طوال الأسبوع، وحتى أمس تنزل قبل الظهر، رآها قد خلعت نظارتها السوداء فلمعت من بعيد عيناها الزرقاوان، كان حلمه وهو صغير أن يتزوج من شقراء، ها هو تزوج من شقراء زرقاء العينين أيضاً، أدرك أنه يقف في الماء الذي رآه منذ قليل وقد تراجع حتى الأفق، ليس هناك أسماك تحته أو بين قدميه، لا أعمدة رومانية ولا صخور ولا سفن، تذكر القبيلة التي قصدت بلاد المغرب فمشى أهلها في الصحراء حتى تعبوا فرأوا مدينة خضراء فدخلوها وأكلوا وشربوا وناموا ليلتهم فلما أصبحوا لم يجدوا المدينة، بل وجدوا أنفسهم في الصحراء من جديد فمشوا في حزن شديد حتى رأوا مدينة أخرى أجمل من الأولى فدخلوها وأكلوا وشربوا وناموا وأصبحوا في الصحراء فمشوا في حزن أشد حتى قابلهم راع فقير قصوا عليه نبأهم فقال إن ما جرى يحدث كثيراً وسألهم عن وجهتهم فقالوا المغرب فقال إن عليهم الاستمرار في المشي حتى تقابلهم مدينة ثالثة هي

أول بلاد المغرب فمشوا ورأوا مدينة لكنهم لم يدخلوها أبداً؛
إذ ظلت تمشي أمامهم ولا يدركونها حتى انقطع خبرهم.

استدر فرأى الأفق فقرر أن يسبح إليه. هل يصبح مثل
تلك القبيلة؟ لا أفق في الوجود، المسافة بين الأرض التي
يسبح فوقها والسماء هي المسافة بين الأرض وبين السماء
عند الأفق، الإنسان هو الكائن الوحيد على الأرض الذي
يحب أن يعيش مخدوعاً، لكنه سمع صفارة الغطاس الذي
يقف على السلم العالي فوق الشاطئ فالتفت. لماذا حقاً يفعل
ذلك والبحر هادئ اليوم؟ ورأه يشير إليه بعصبية، لعل هنا
دومات ما. رأى فتاة تقترب منه سابعة داخل عوامة سوداء.
بدت مبتهجة، نظرت إليه بنزق طفولي وها هي تبتسم. رأى
جسدها الممدود على الماء وبين العوامة وردياً، وبريق
ساقبها ذهبياً تحت سطح الماء، لكن الغطاس لم يكف عن
الصفير فأخذ طريق العودة في الوقت الذي استمرت فيه الفتاة
تتوغل في الماء.

رأى على الشاطئ المرأة الشابة الجميلة عائدة لا تزال
تبحث عن طفلها، وقد ازداد حولها الأطفال، إنها تمشي باكية
وعلى مهل الآن قادمة من ناحية اليسار ذاهبة إلى ناحية

اليمين الأكثر امتدادًا. لا بد أن هذه المرأة لا تَرى لامتداد الشاطئ نهاية، لكن من الذي قتل حقًا تلك الليلة؟ بعد يومين من الحادث وبينما هو مستلقٍ فوق السرير يقرأ قبل النوم وينظر بين الحين والحين إلى شعر زوجته الغزير المنسرح على ظهرها العاري وهي نائمة فكر فجأة أن الرجل الأول لم يمت بل استطاع أن يمسك بالسكين من الآخر ثم يقتله به، الأول هو الذي هرب في الزقاق إذن والآخر هو الذي هوى!!...

(٣)

ما كاد يعود ويجلس حتى وقفت، ابتسمت ومدت يديها
إلى ظهرها تفك السوستة الطويلة للفستان الصيفي ومشيت
بتؤدة على الرمال تتساند على الهواء.

في اللحظة التي فكر فيها أن ينهض ليلحق بها، إذ تبدو
حائرة في البحر بدونه، سمع صوت صفعة وصرخة فالتفت
ليجد رجلاً يضرب فتاة تحاول أن تلملم ملابسها من تحت
شمسية قريبة وهو لا يسمح لها بذلك، ثم أمسك شعرها ولواه
في قبضة يده، ودفعها للمشي مذعنة متألمة تبكي أمامه،
والناس كلها على الشاطئ وفي الماء تتابع المشهد بدهشة لا
نقل عن دهشته، حتى صعد الرجل بالفتاة السلم الذي يفضي
إلى أعلى الشاطئ حيث الكورنيش. عندما أصبحت الفتاة
والرجل، فوق الرصيف، واختفت سيقانهما خلف الكباش
العليا للشاطئ. بدأ كثير من الرجال والنساء يمتعضون،
ويطلقون صيحات وعبارات الاستكار، يتقبل الناس رؤية

النساء بالمايوه على الشاطئ بسهولة، لكن ذلك يكون صعباً في الشارع العام مهما اقترب الشارع من البلاج، وكورنيش الإسكندرية ليس شارعاً صغيراً مقللاً. سمع الناس صوت احتكاك عجلات سيارة تتطلق بسرعه غاضبة، تعلقت بها أنظار الذين وقفوا من المارة فوق الرصيف، أدرك المصطفون أن السيارة حملت الرجل والفتاة معاً، نزل هو بعينه لكنه توقف بهما عند باب مفتوح لإحدى كبائن الدور الثاني، فلمح خلفه شاباً وفتاة، يقفان بثياب البحر، في عناق هادئ ففكر في السعداء والتعساء.. على غير قصد تسامع في نفسه؟ إلى أي نوع ينتمي؟.

.. كان سعيداً بتخلّصه من مشاغله الكثيرة في القاهرة، والمجيء إلى الاسكندرية التي يعشقها، قال لزوجته «سندخل كل مطاعم المدينة الفخمة، وكل ملاهيها هذه المرة، وسنسهر حتى الصباح كل ليلة في أحد الفنادق، ونبقى في شقتنا ساعات قليلة بعد العودة من السهر، ولن أخبر أحداً من أهلي بقدومنا حتى لا يزرونا أحد فيضيع وقتنا، ولا يكافنا أحد مضض الزيارات العائلية.. وقالت له، إنها أيضاً لن يشغلها عنه شيء، ولا شغل الكانفاه الذي تحبه، ولن تتخلى عنه حتى

على الشاطئ. وفي اليوم التالي لوصولهما طلبت منه أن يأخذها في السيارة إلى سوق المنشية لتشتري قطعاً من الكنفاء وخيوطاً وإبراً، وافق على الفور، وكان بالليله الماضية قد رأى حادث القتل الغامض، ومشى معها في السوق صامتاً، في عودتهما ضحكت ونظرت إليه بشقاوة مباغتة، ابتسم، لقد أدرك أنها تتذكر حديثه لها دائماً حين يراها تشتغل في الكنفاء، ينظر إليها مبهوئاً ويقول "كلما رأيته ترسمين بالخيط فلاحه تحمل جرة، أود لو أكرس الجرة، وأترك الماء ينزل على رأس الفلاحه، وحين ترسمين نسرًا يصعد إلى السماء تمنيت لو حملني معه وتركني فوق جبل أو بركان".. في أول مرة تضحك وتقول له "أنت مجنون" وفي آخر مرة قالت ذلك قال "نعم أنا مجنون لأنني كلما وقفت في البلكونه فكرت في القفز ثم الجري على الأرض، أنا لا أفكر في الانتحار كما ترين لأنني أنزل سالمًا وأجري.."

لكنها كفت عن الضحك للحظة، ثم ابتسمت وقالت:

- حلمت أمس حلمًا غريبًا

- أخيرًا.

- حلمت أني دخلت إلى مدينة نحول رجالها إلى أعمدة خشبية، وتحولت نساؤها إلى أشجار خضراء عريضة أورقت فروعها وأزهرت أطفالاً جميلة تعلقت بالأغصان.

(٤)

اشتدت الشمس، ملاً الضوء الأبيض القوي الفضاء،
ارتفع الموج قليلاً، وكاد يصل إلى الصف الأول للمصطافين،
فأفسد كل حفر الأطفال، الذين وقفوا يضحكون، وهم يرون
الدلاء وأدوات الحفر يجرها الموج إلى البحر، ثم انطلقوا
خلفها، يلحقون بما يستطيعون منها، ظهرت المرأة الجميلة
الباكية من جديد، وقد ازداد عدد الاطفال الذين يحيطونها هذه
المرة، بينما تباطأت خطواتها، وغاض لون وجهها أكثر،
وملأت الدموع صفحاته، بدت ذاهلة تماماً لا تبحث عن أحد،
هتفت بها إحدى السيدات، أن تذهب إلى أقرب نقطة بوليس
فربما أخذه أحد إلى هناك، فكثير من الناس يرون أن هذه
أفضل الطرق لإعادة التائهين إلى أسرهم، بدا لهم أنها لم
تسمع هتاف المرأة، ظلت تمشي وحولها الأطفال بلا هدف،
قال:

- مسكينة .

قالت زوجته التي كانت قد خرجت من الماء منذ قليل
وجلست بالمايوه بعد أن جففت جسمها، وحرصت على أن
تضع عليه فوطة كبيرة وهي جالسة.

- الشواطئ خطر على الأطفال دائماً.

قال:

- صحيح هذا منظر نراه كل عام بالإسكندرية.

ومد يده إلى الحقيبة البلاستيك التي بها الساندوتشات ثم
أخرجها خالية، سألته: جائع؟

- فكرت أكل لكن ننتظر قليلاً.

مدت يدها إلى حقيبة أخرى من قماش، أخرجت قطعة
كانفاه وكرة خيط وإبرة وقالت:

- هذه القطعة بها مشهد رائع، بحر وعرائس بحر
يلعبن في الماء، هل سنسبح بينهن؟

ابتسم وسكت قليلاً ثم تساءل:

- لماذا ارتفع الموج هكذا والوقت ظهر؟

شردت قليلاً ثم أجابت:

- البحر زعلان.
- نعم؟
- زعلان. المفروض انك إسكندرائي وتعرف حزن البحر.
- هذه أول مرة أسمع فيها ذلك؟
- لقد قلته لك العام قبل الماضي
- سكت ولم يعلق.. إنه لا يذكر شيئاً من العام قبل الماضي، وربما من العام الماضي أيضاً.. وبسرعة انشغلت عنه بالشغل في الكائفاه باستغراق شديد، فانطلق يضحك لكن بصوت غير عالٍ، لم تهتم فقال:
- هل تعرفين لماذا ضحكت؟
- لقد تعودت على جنونك.
- هذه المرة تذكرت مجنوناً أكبر.
- تذكرت الحاكم بأمر الله.
- وماذا يضحك في هذا؟ كنا نضحك عليه أيام الدراسة، لكننا حفظنا سيرته.

- هل تعرفين ماذا فعل مثلاً ببعض النساء؟
لم ترد. اتسعت عيناها تستعد لاستقبال ما سيقوله
باستخفاف.
- لقد ذهب إلى أحد حمامات النساء، كان به ثلاثون
امرأة فسد الباب عليهن وبنى على الباب جداراً ثم
أشعل النار في الحمام.
- في البداية تذمرت للحظة لكنها ابتسمت وانطلق هو في
ضحك مجنون، حتى أنها تصورت أن الهواء الذي هب
فجأة هو من تأثير ضحكته.
- رأت المرأتين القريبتين منهما تنظران إليهما بشكل
استنكاري، فهمست إليه:
- بالراحة الناس استغربت علينا، ماذا جرى لك اليوم؟!
كتم ما كان يمكن أن ينطلق من ضحك، وقال بصوت
خفيض:
- أنا لا أعرف بالضبط ماذا جرى لي اليوم، أريد أن
أحدثك عن حلم عجيب.

قالت هامسة بدورها متكلفة نفاذ الصبر:

- لقد حفظت أحلامك كلها.

- لكني لم أحدثك أبداً عن هذا الحلم، إنه أغرب من حلمك الذي حدثتني عنه، فهو بالمناسبة حلم قديم رأيته منذ أعوام كلما تذكرته أحببت أن أحكيه لك، ولا أعرف ما الذي شغلني عن ذلك كل هذا الوقت.

- طيب تفضل احكي.

سكت لحظة ثم قال:

- وجدت نفسي أمشي في سرداب مضاء بشموع قليلة، في نهاية السرداب وجدت شخصاً مربوطاً إلى جذع شجرة عارياً إلا من سروال ويضربه عدد كبير جداً من الناس بالسياط يمزقون لحمه.

- يا سائر. هذا كابوس وليس حلمًا.

- هل تعرفين من كان هذا الشخص، ومن الذين كانوا يضربونه؟

بدت الاسترابة في عينيها. قالت:

- إياك أن أكون أنا. إذا كنت أنا فلا بد أن الناس كانوا
أهلك.

ضحك . كاد ينطلق أكثر وضع كفه على فمه، قال كأنه
يناجيها:

- كنت أقتل أهلي وأموت نفسي.

طالت نظراتهما أحدهما إلى الآخر، تساءلت بهمس
حنون:

- هل ما زلت تحبني حقاً؟

- ما زلت وسأظل.

- لماذا لم تنزل معي، البحر؟

- أنت التي لم تنزلي معي، ورغم ذلك فكرت الحق
بك.

بدأ الجالسون في الصف الأول من الشاطئ يقفون،
النساء يشرن إلى عمال الشاطئ ومؤجري الشماسي ليأتوا
ويخلعوا الشماسي عن الموقع الذي وصل إليه الماء الآن
بشدة ويغرسونها في الخلف، الرجال فعلوا ذلك بأيديهم، انشغل

الأطفال بحمل ما يجدونه من أشياءهم، حملت النساء الحقائق القماشية والبلاستيكية التي بها الطعام أو الملابس وكذلك الشباشب من كل نوع ولون، لقد ارتفع الموج عاليًا وطال كل شيء.

ولأن الذين في الصف الثاني لم يتزحزحوا عن أماكنهم حدث اشتباك بالكلمات في أكثر من موضع، واضطر الكثيرون ممن كانوا يشغلون الصف الأول إلى الرجوع خلف الصف الثاني، لاحظ هو أن باب الكابينة العليا الذي كان مفتوحًا، ويتعانق خلفه الفتى والفتاة، صار موصدًا الآن، لقد مضى وقت طويل ولا بد أنهما انصرفا، ورأى فتيات كثيرات يخرجن من الماء في هلع تهتز أجسادهن اهتزازات خفيفة جاذبة، تخايله بفعل سقوط الضوء على اللحم المبتل، وبدأت ريح تجري بعرض الشاطئ غير قادمة من البحر، تحمل سفوفًا غير كثيفة من الرمال، لاحظ أنه قد ابتعد كثيرًا عن المرأتين اللتين كانتا تتكلمان همسًا وبسرعة، لماذا حقًا كان يريد معفرة شيء مما يتحدثان فيه؟ لاحظ أن كثيرًا من الفتيات اللاتي خرجن من الماء قد اتجهن إلى بائع الآيس كريم الذي اتسعت ابتسامته ورأى امرأة بدينة وامرأتين

صغيرتين وعدداً كبيراً من الأطفال يكون حولهن غير
بعيدين عنه، ويتحدثون بصوت عالٍ:

- لا بد أن نعود إلى البحر.

- البحر هاج، جدتكم تقول إن البحر لا يفعل ذلك إلا
إذا كان هناك غريق.

نظر إلى زوجته التي كانت قد سقطت منها قطعة
الكافاء وهي تنهض حين علا الموج وصعد إلى الشاطئ
فابتلت وغيرتها الآن بقطعة أخرى عليها الخطوط الخارجية
لدرويش يندق على دف. فكر أن يطلب منها مغادرة الشاطئ
مثل الكثيرين الذين يفعلون ذلك الآن، لكنه تذكر ما حدث لها
أمس حين هبطت الشمس في الماء وغادرا الشاطئ
متأخرين، فقد تشبعا بجمال غروب الشمس واشتعال الأفق
فوق الماء الأزرق، ونزل هو إلى الماء مجذوباً إلى دفته
المسائي الحنون، وطلب منها أن تشاركه مرة نزول البحر
عند المغيب حيث يختلف الماء، لوناً وطعماً ورائحة أيضاً،
ووعده أن تفعل ذلك وقبل الانصراف إلى الشارع الجانبي
الذي يفضي إلى العمارة التي بها شقتهم قررا الدخول في
شارع آخر قريب به سوبر ماركت تعودا أن يشتريا منه

حاجتهما كل عام، ما كادا يدخلان الشارع، ويبتعدان قليلا عن الكورنيش حتى سمعا ضجة، كانت زمرة من الأطفال تطارد امرأة مخبولة، وتقذفها بالأحجار الكبيرة والصغيرة والمرأة تجري مذعورة وتقفز فوق الأحجار في هلع فيتراجع الأطفال، ثم تجري فيتبعونها صارخين مهللين، بينما وقف عدد من الرجال والنساء في البلكونات ينهرون الأطفال الذين لا ينصاعون لهم في نفس اللحظة دخلت عربية بوليس "بوكس" الشارع مسرعة تثير الغبار وتوقفت فجأة أمام باب إحدى العمارات ثم قفز من صندوقها الخلفي عدد من الشرطه، وقفز من جوار السائق ضابط شاب واندفعوا جميعا داخل العمارة، توقف الرجال والنساء عن الصراخ في الأطفال وتابعوا المشهد الغريب لعربة البوليس الذي لم يستمر إلا لحظات حيث خرج الجنود والضباط من العمارة يدفعون أمامهم ثلاث نساء عاريات ملفوفات في ملايات مضطربة، وخلفهم أيضا يدفع عدد آخر من الجنود بثلاثة عراة تماما يسترون عوراتهم بأكفهم، في تلك اللحظات القصيرة كانت ثلاث عربات ملاكي قد دخلت إلى الشارع، وقفز من كل منها عدد من الرجال والشباب والنساء حاولوا

الفتك بالرجال والنساء العراة، لكن رجال الشرطة منعوهم من ذلك، ففز النساء والرجال العراة إلى صندوق العربة الخلفي ومعهم رجال الشرطة، وامتألت البلكونات بالناس، يقذفون باللعنات والبصقات، على الجميع، وكف الأطفال عن مطاردة المرأة المخبولة التي وقفت بعيدًا تنظر لما يجري بسعادة طفولية وعينين براقتين وانطلقت سيارة الشرطة فجرى أصحاب السيارات الملاكى إلى سيارتهم ليتبعوها، لكن الأطفال كانوا قد سبقوهم في متابعة سيارة الشرطة وراحوا يقذفونها بالحجارة حتى سبقت الجميع، وقالت زوجته باسمه:

- العجيب أنى كنت نويت اليوم أن أنزل معك إلى الماء عند المغرب.

كان الهواء الحامل للرمال يزداد، وازداد انصراف الناس من الشاطئ قال:

- يمكن أن نأكل الآن وننتظر. قد يهدأ الحال.

مدت يدها إلى حقيبة الطعام، كان كثير من السندوتشات قد وصل إليه الماء، قالت:

- لا مفر من العودة إلى الشقة الآن.

كان يدرك أن الماء طال الطعام ولا يعرف لماذا طلب
منها أن يأكل، هل أراد منها أن تكتشف ذلك فتطلب العودة؟
على أي حال لم يعلق، انشغل بمتابعة المرأة الجميلة الباكّة
التي لم تعد تمشي على الشاطئ. رآها تمشي فوق اللسان
الصخري الممتد طويلاً في البحر يفصله إلى منطقتين
واسعتين للاستحمام، كانت وحدها هذه المرة، رآها تجلس
عند آخر نقطة فوق الصخور، الموج يضرب في جوانب
الصخر العالية فيرتفع رذاذه يطولها وينتشر حولها لكنها
جلست غير مبالية بشيء تنظر إلى الأفق، ورأى وهو يعود
بعينه، الغطاس النوبي وقد وقف فوق السلم الحديدي ينزل
الراية البيضاء ثم يرفع الراية السوداء ويصفر بجنون لكل
من في الماء وفي لحظة ارتفع الموج أكثر وأصدر هديرًا
عاليًا فطال الصف الأول للعدد القليل الباقي من المصطافين،
كان ذلك الصف هو الثاني منذ قليل، الثاني لم يقتل الأول حقًا
تلك الليلة، لكن الأول لم يقتل الثاني أيضًا كما ظن بعد ذلك،
الآن يدرك بوضوح أن شخصًا ثالثًا ظهر خارجًا من زقاق
مظلم وقتل الاثنين معًا ثم عاد ليختفي في الزقاق.

مشكلات الجلوس

المقهى الجديد في الحي القديم لفت انتباهه بنظافته غير
العادية فقرر أن يكون جلوسه فيه، وحده أو مع أصحابه
أو من يشاء لقياء.

الحوائط لامعة لأنها مغطاة بالسيراميك الوردي الجديد،
والأعمدة أكثر لمعاناً رغم أن لون السيراميك حولها يميل إلى
البنّي، أما الأرض فهي أكثر لمعاناً من الحوائط والأعمدة
رغم اللون البني القاتم للسيراميك!

في السقف عدد كبير من المراوح تدير الهواء منعشاً
وعزيراً، والمكان لا يكون مزدحماً في الصباح ، وفي المساء
تظهر المقاعد على رصيف الشارع حيث الهواء القادم من
الجهة الشمالية عذباً سلسيلاً!! والرجل صاحب المقهى، فيما
يبدو من الموسيقى التي يطلقها في المكان، جاء من عصر
آخر، فهو بالليل يترك صوت فيروز ينساب في الفضاء، وإذا
تقدم الليل أكثر، أعطى الفرصة لصوت أم كلثوم، أما في

المساء والعصاري فهو يترك مساحة كبيرة لصوت عبد الحليم حافظ، وفي الصباح بعد إطلاق البخور الجاوي مع صوت الشيخ رفعت أو الحصري، يترك الفرصة للموسيقى الخفيفة، حتى إذا انتصف النهار تسيد صوت عبد الوهاب الوقت مع فواصل من الموسيقى الشرقية، ولقد أدهش الناس حقاً من هذا المقهى الجميل كيف يخلو من التليفزيون، وكان ذلك سبباً كافياً لعدم ظهور الدهماء والغوغاء على حد قول أحد الرواد الأذكىاء، لكن أحداً من الجالسين لم يعرف ماذا في سيراميك الجدران يجعل الجالس يرى أمواجاً تتقلب بهدوء، فوقها سفن صغيرة «تمخر عباب البحر» ترتفع بها الأمواج وتنزل في أناء، وحولها الدلافين تقفز، وكثيراً ما يبدو أيضاً أن هناك رجالاً ونساءً يرقصون رقصات هادئة أثرية بين ستائر خفيفة يطيرها هواء ناعس!!..

لا يعرف الجالس هل هذا سحر مدفون في السيراميك، أم هو من أثر الموسيقى وأصوات الغناء الشجية، أم من برودة المكان المنعشة؟

هذا ولقد جرب أكثر من شخص الحديث بصوت عالٍ فلم يفلح، هكذا دون تدخل من أحد، صارت أصوات الجالسين

خفيضة فور دخولهم إلى المقهى فلا يسمع الصوت إلا من يتوجه إليه صاحبه وبالكاد، والحقيقة أن رواد المقهى تحدثوا في كل هذه الأمور الغربية للمكان بعض الوقت ثم صارت من الأمور العادية، لكنه أخفى أمرًا لم يحدث أحدًا من الجالسين، ولا من أصحابه، فيه.

لقد اكتشف أنه لا يستطيع أبدًا الجلوس في الخارج. قوة جذب سحرية تشده إلى الجلوس داخل المقهى وليس بين المقاعد المفروشة على الرصيف، واكتشف أنه بعد أن يشرب قهوته، ويتوه وقتًا مع الخيالات السحرية على الحوائط والأعمدة، يرى فجأة الأعمدة اللامعة وقد بدأ السيراميك يتخلع عنها ويتساقط وتظهر هي تحته جبهة من الأسمنت الأسود والزلط، ثم تروح بدورها تُسْرَخ ثم تنهدم على مهل، وعلى الفور تلتحق بها الجدران التي تنهار بعد أن يسقط ما فوقها من قطع السيراميك، وتتناثر حجارته، وقبل أن يلحق السقف بالجميع يرفع هو عينيه إليه فيجده في مكانه.

لم تشغله هذه الرؤيا، وظنّها حالة مؤقتة ستمضي إلى حال سبيلها، لكنها راحت تتكرر معه كل يوم، حتى أنه لم يعد قادرًا على النظر إلى السقف فهو أيضًا يسقط فوقه،

ولاحظ أصحابه بعد ذلك أنه لا يجلس في مكان واحد، ففي كل يوم يغير مكانه داخل المقهى، كان يفعل ذلك بطريقة لافتة للنظر، ولم يسأله أحد، وهو لم يكن قادرًا على البوح بأنه يفعل ذلك؛ لتقادي الرؤيا الكابوسية هذه، لكنها صارت كلما جلس تتجلى له، وفي أي مكان من المقهى، ولقد اشتدت فلم تعد تحدث بعد أن يشرب قهوته ويتشبع من الخيالات الجميلة، بل صارت تحدث بمجرد الجلوس، أدرك أنها تنقطع فقط حين يقف، في اللحظات التي يدفع فيها الحساب للجرسون، أما قبل ذلك فلا يخفيها غير إغماض عينيه، ثم لم يعد ذلك يخفيها أيضًا، وهكذا لم يعد قادرًا على الحديث مع أحد بتركيز، وجرب أن يقف قبل أن يدفع الحساب للجرسون فاختفت الرؤيا الكابوسية، وهكذا أدرك أن المشكلة هي الجلوس، وفي هذا المكان، هذا المقهى الجديد الملعون.. لكن هل يستسلم؟ لقد قرر أن يتجنب الأمر بكل إرادة ممكنة. لماذا حقًا لا يجلس خارج المقهى على الرصيف، لماذا يستسلم لقوة الجذب الخفية التي تشده للجلوس داخل المقهى.. سيفعل ذلك من الغد، ومن الأفضل أن ينقطع عن المقهى كله بعض

الوقت، وربما تنتهي الأزمة كلها إذا تحدث فيها مع أحد،
زوجته أو زملائه في العمل.

لكنه لم يستطع أن يتحدث مع زوجته في شيء. وما إن
دخل إلى شقته وجلس حتى رأى الجدران التي أمامه تتهاوى
وتتهدم وبسرعة وجد نفسه يقف.

- مالك؟

- لا شيء.

سألته زوجته حيث رأت عرقاً كثيراً على جبهته وعنقه،
جلست ولم يستطع الجلوس، اتجه إلى غرفة النوم وخلع
ثيابه، وتمدد فوق السرير بعد أن ارتدى بيجامته، وأغمض
على الفور عينيه، كان لا بد أن يستدعي ما مضى من حياته،
إنه لا يذكر أنه قرأ شيئاً عن الجنون، ولا يعرف أن في
تاريخ حياة عائلته مجنوناً واحداً، قد يكونوا أخفوا ذلك عنه،
لكن أحداً لا يستطيع إخفاء ذلك. الحديث عن الجنون لا يمكن
إخفاؤه، له إغراء خاص، وكثيراً ما يبعث على الابتسام
والبهجة وهو مأساة كاملة، وهو أيضاً لم يرتكب خطايا
كبيرة، حتى زوجته العاقر لم يطلقها، ولم يعد يفكر في

"الذرية"، لقد تزوجها بعد قصة حب عذيفة، وهو الآن يستحق جائزة أكثر الأزواج احتفاظاً بحرارة الحب حتى أنه يستعد لتأثيث دار حضانة للأطفال تعمل فيها زوجته فيكون لديها بدل الطفل الواحد عشرات الأطفال، إذن سينتهي الأمر وحده ما دام هو يحاول مقاومته بإرادة قوية، وما دام هو الشخص ذاته الذي يعيش بلا خطايا، يحتاج فقط إلى أن يقص الأمر على زملائه في العمل، سيجعله حكاية فكاھية، وتعجل بالفعل وصول الصباح، وبالكاد يدخل إلى حجرة زملائه الموظفين ويجلس، وقبل أن يشرع في أي كلمة، رأى الحائط المواجه يتهاوى ويتهدم على زملائه ومكاتبهم، فوقف على مهل يائساً، واتجه ناحية الحائط المواجه هذا، وجلس خلف مكتب آخر فرأى الحائط الأول يتهدم ويعنف فوقف كمن لدغه عقرب، لم يكن قد وصل إلى العمل غير ثلاثة زملاء راحوا ينظرون إليه صامتين مدهوشين وهو بدوره ترك المكان كله ونزل إلى الشارع ليجلس على أول مقهى يقابله في حالة من اليأس الكامل خافضاً عينيه إلى الأرض حتى إذا أتى الجرسون ورفع إليه عينيه رأى من خلفه جدران البيوت كلها

تتهاوى بنوافذها وشرفاتها فترك المكان دون كلمة وتابعه
الجرسون بنظرة استغراب.

كان الشارع طويلاً لكنه لم يعد يمشي بائساً ولا على
مهل، تملكته حمى مجنونة وصمم على الانتصار، وراحت
عيناه تبحثان عن كل مقهى في الطريق، ويدخل المقهى
بإرادة حقيقية ويجلس لكنه لا يستطيع الاستمرار أكثر من
دقائق فسرعان ما تتهاوى كل الحوائط المقابلة، ويتمسك
بالبقاء ولا يستطيع ، وينتقل من مقعد إلى آخر، ومن ركن
إلى آخر، وتطارده الرؤيا فينهض ويترك الشارع إلى آخر،
ولا يدري أنه قد اخترق أكثر شوارع المدينة، وأن النهار قد
مضى لكن لا أضواء حوله، فما زال ضوء الشمس يصل
حتى بعد سقوطها في الغرب، هذا هو المقهى الأخير الذي
سيجلس به اليوم وسينجح، وجلس فتهافت كل البيوت
المقابلة، وخرج مسرعاً إذ أحس هذه المرة بصوت السقوط
المدوي فوق رأسه وأطلق ساقيه للجري ولا يعرف من أين
أنته كل هذه القوة، لقد وجد نفسه وقد صعد ربوة من الأسفلت
وتوقف متعباً ينظر وراءه، لم يكن هناك ثمة مدينة يعرفها

ولامدينة لا يعرفها كانت هناك رمال واسعة وأطلال آثار
قديمة ومقابر لا تنتهي.

مسحوق التمساح

(١)

وضع القطعة في يدي ثم أغلقها عليها مبتسمًا.

- سوف تذكرني كثيرًا.

رأيت السياح يدفعون في القطعة نفسها عشرات الدولارات، سياح من الرجال والنساء أيضًا، يتأملون القطعة التي يأخذها كل منهم ويضحكون.

النساء تحمر خدودهن للحظات لكن سرعان ما يسوي الضحك بين الجميع، النيل يتراמי أمامنا هادئًا فوقه قوافل البوارج السياحية، الشمس ساطعة وحرارة الجو جعلت الجميع شبه عراة.

بسرعة صعدت إلى السيارة الجيب أمرًا السائق المجند أن يسرع إلى المطار، انتهت مهمتي في التدريب هنا في أسوان مع عدد كبير من الضباط الكبار! وكعادة كل من يأتي هنا اشتريت كميات من ثمار الدوم والتمر هندي والكردييه والبلح الإبريمي والتوابل. وضعت القطعة الصغيرة في جيب

مستقل من الحقيقة، ثم وجدت نفسي أخرجها وأضعها في جيب سترتي الميري من الداخل.

(٢)

في الإسكندرية تركت الحقيقة لزوجتي تخرج ما فيها، انفردت أنا بالقطعة الناشفة جدًا في غرفتي أتأملها لأول مرة، كنت فكرت أن آخذها إلى دورة مياه الطائرة أتأملها على مهل حيث كنت في شوق كبير لذلك، لكنني تراجع، ما الذي يمنع أن تكون دورة المياه مراقبة بكاميرات خفية بسبب الإرهاب الجاري هذه الأيام؟ سيكون الأمر مخجلًا أن يحمل ضابط بوليس ذو رتبة كبيرة قطعة كهذه!

كنت محتاجًا أن أعرف لونها على الأقل. لم أصل إلى لون نهائي، خضراء ضاربة في البني مائلة إلى الرمادي! أخايدها كثيرة رغم أنها لا تزيد عن عشرة سنتيمترات طولاً وخمسة عرضاً، سمكها لا يزيد عن السنتيمتر. ابتسمت، كيف حقاً أذيب قطعاً منها في الشاي أو اللبن أو أي مشروب

ساخن أو بارد كما يقال! أنشبت فيها أسناني متردداً، خيل إليّ
للحظة أنني أنشبت أسناني في بطن التمساح! ابتسمت
أغمضت عيني وضغطت بأسناني عليها فصرخت! انكسرت
سنتي المجاورة للنايب الأيمن.. أجل. أبعدت القطعة عن فمي
فرأيت سنتي تسقط أمامي على الأرض ملوثة بالدم، في
المرآة وجدت مكان سنتي غائراً وواسعاً أكثر مما توقعت،
أصابني الغم والإحباط، لو أن ضرساً هو الذي انكسر لكان
الأمر أهون لأنه بعيد هناك داخل الفم، مكان هذه السنة
اللينة يظهر لكل مخلوق، وأنا ضابط بوليس برتبة عقيد،
وسأحصل في الترقيات القادمة على رتبة عميد فيا له من
شكل مضحك لرجل بوليس صارم! ستهتز سطوتي بالتأكيد،
مهما شخطت ونطرت سينظر الجنود والضباط والمتهمون
والمجرمون إلى مكان السنة الخالي ويضحكون في سرهم،
أو علناً بمجرد أن أعطيهم ظهري، كما أن سقوط هذه السنة
اللينة قد يتسبب في تآكل الحروف أو تبادل مواقعها فأنطق
السين شيئاً، والتاء ثاءً وهكذا.

- لماذا تضحكين على ضياع سنتي؟

- أنا أضحك على ضياع عقلك.

- معك حق. أنا غاطان!

كانت تعرف كل شيء لذلك ضايقتي ضحكها بحق، وضايقتني أكثر أنها هزت كتفها في لا مبالاة وانصرفت من أمامي، والحقيقة أن موقف زوجتي دائماً يحيرني، أعرف أنها كأنثى لا يمكن أن يكون هذا شعورها الحقيقي، لكنها تبدو دائماً مجاملة لي، ولا يبدو أنه ينقصها شيء، والذي ينقصها هو الذي أحاول أن أوفره الآن، وهو ما لا تستغني عنه امرأة، ولا رجل في الحقيقة، فما بالك بامرأة جميلة ورجل قوي.

لقد تأزمت الأمور بيننا أكثر من مرة في العامين الأخيرين، لكنها لم تزد عن ابتسامة ودود. تضحك طبعاً حين يحدث التراجع أو التراخي لكنها سرعان ما تنهي الضحك وتبتسم بود ولا يبدو أبداً أنها تضايقت وأعرف أنا أن هذا كله غير حقيقي فهي فقط تريد أن تشجعني باعتباره أمراً عارضاً سينجلي، كثيراً ما كنت أحتد عليها حين تبدي بعض التمتع في بداية اللقاء، وتزيد فيه قليلاً ناسية حالي فيحدث ما أخشاه من تراجع، ونهرتها أكثر من مرة أن تقبل عليّ سريعاً في اللحظة. التي أهم فيها بها، فنظرت إليّ نظرة طويلة عميقة

أخافتني وأذلتني، لم أعد إلى لومها، وحاولت مسترشداً ببعض كتب علم النفس، لم أعرض نفسي على طبيب، وشحنت نفسي باليقين بأن ما يحدث أمر عارض وكانت النتيجة باهرة.. لكن الأمر لم يزد عن لقاء واحد في الشهر يأتي في الغالب بلا موعد، والحياة حولي للأسف كضابط شرطه بصفة خاصة، مليئة بالجنس، فمن ناحية يقترّب عمري من الخمسين، وهذه هي المراهقة الثانية كما يقول العلم، ثم إن قوامي كرجل شرطة رياضي، لا يزال شاباً! والفتيات هذه الأيام يتفنن في الملابس الضيقة بشكل مثير للغاية، ثم أنني أخطأت وركبت على السطح "طبق هوائي" كبير فلا أنام بالليل قبل أن أحقق رغبتني في التجوال على ملاهي العالم وأفلامه المثيرة، يساعدني أن ابني في كلية الشرطة فهو شبه غائب، وابنتي تنام في غرفتها مبكرة كما عودناها تماماً، وطبعاً لن أتحدث عن النساء اللاتي يأتين إلى قسم البوليس متهمات أو شاكيات وكيف يتفق أن بعضهن يغرين بالجنس الفاضح الذي لا يصمد أمامه إلا رجل شرطة حقيقي، ناهيك عن حالة الفلق العنيف الذي يسببه موقف الجماعات الإرهابية الغامض، فالواحد لا يعرف أين ومتى

ستأتيه رصاصات الإرهاب المصوبة إلينا نحن الضباط في كل وقت. صحيح أنني في الإسكندرية التي لا تزال أكثر أماناً، لكن القصص التي أسمعها في دهايز الشرطة عن ضحايا الإرهاب من رجالنا تجعلني في قلق مستمر. قلق غريب يزيد من رغبتي الجنسية، ويزيد من أزمتي، جسد من تراب وروح من أثر، هذه هي المشكلة.

(٣)

ركبت بسرعة سنة من العاج مكان سنّي المكسورة، كان حرصي على ذلك أكبر من أي شيء، ثم عدت من جديد إلى القطعة السحرية التي أعطانيها عباس المطراوي، كنت قد حفظتها بين الأوراق شديدة الخصوصية في الدرج المسحور من الدلاوب، لا يعرف أحد كيف أمضيت الأسبوعين السابقين على تركيب السنة الجديدة، كنت أرى في عيون الجميع رغبة في الضحك، أو على الأقل الابتسام، فصارت نظرتي للجنود أكثر صرامة، وللضباط وصف

الضباط، صرت أنهى الحديث، أي حديث، بسرعة وبغف، زامًا شفتي، مطلقًا نظرة نارية من عيني، ثم أشيح بذراعي لمن أمامي بالانصراف، كدرت الجنود المجندين تكديرًا لا مزيد عليه دون ذنب واضح، حتى أن بعضهم كان يبكي، كما علمت، بالليل من أثر ضربي فيه بلا سبب. الأغبياء لم يستطعوا إخفاء ابتساماتهم وهم يرونني بسنة مكسورة، خانتهم الابتسامات وتخالفت على جوانب شفاههم.

أمسكت القطعة العجيبة في يدي من جديد، هل يمكن أن تكون قطعة من المعدن ضالني بها البائع اللعين؟ طرقتها على الأرض لم تصدر صوتًا معدنيًا، أصدرت صوتًا مكتومًا لا يشي بشيء، فقط ذكرتني أن أرضية شفتي لا تزال من البلاط القديم، كثيرًا ما طلبت مني زوجتي أن تخلعه وتركب بدلًا منه السيراميك الذي صار شيئًا عاديًا في البيوت الآن، الحياة وتعليم الولد والبنت يقضون على كل ما أكسبه من مال، طبعا الخيال المريض لن يتصور ضابطًا برتبة كبيرة غير قادر على تغيير بلاط الشقة، ويمكن أن يتصور أحدكم أن الشقة كبيرة جدًا، والحقيقة أنها لا تزيد عن مائة متر، وأنتي ضابط نظيف أعيش براتبتي، وما أحصل عليه من

خوافز، وهذا كله لا يصل إلى ما يحصل عليه عامل
السيراميك في أقل من شهر، أنا، هذه حقيقة، لا أقبل رشاوى
من أي نوع، ولا الهدايا، وأقصى ما قبلته، ولا زلت أقبله،
صندوق أوراق كلينكس يحرص تاجر جملة يقع محله أمام
قسم الشرطة أن يرسل عاملاً من عنده يضعه فوق مكتبي كل
صباح، أنا مندهش من إصراره على ذلك منذ عامين، ولقد
انتظرت أن يطلب مني شيئاً لأرفض وأخلص من هذه
العادة، لكنه لم يطالب أي شيء كنت المراقبة السرية عليه
فلم أصل إلى أي شيء، يمس سمعته، لقد حاول أن يرسل
حامل بخور ليقوم بتبخير القسم كل صباح كما يفعل في
دكانه، صرفت حامل البخور وأرسلت إلى تاجر الجملة طالباً
أن لا يعود إلى ذلك، أدهشني إنه جاعني مرتبكاً جداً، وحزيناً
جداً، فالبخور فضلاً عن رائحته له أسرار وبركاته، وهذا
التاجر يحمل وجهاً مضيئاً يؤثر في مشاهدته، لكني لم أتأثر،
وقلت له يا حاج أنت تفتح نشاطك بالبخور كل صباح جلباً
للبركة والرزق، ونحن في الحقيقة لا نفتح القسم كل صباح،
ولا نغلق بالليل أو النهار، والقسم بالذات يكون عظيمًا، وكفؤًا

كلما قل فيه الرزق وزالت منه البركة؛ لأن كل رزقنا من
المجرمين والقتلة والمشاكل التي لا نهاية لها.

ضحك الرجل من قلبه ومضى ولم يرسل إليّ البخور
وإن ظل حريصاً على إرسال علبة المناديل الورقية..

تضايقت طبعاً من عدم قدرتي على تغيير بلاط الشقة،
وأكثر لأن أحداً لن يصدق ذلك، لكنني في النهاية ذهبت إلى
المطبخ، ووضعت القطعة داخل مطحنة الخلط، وضغطت
على زر الكهرباء فاهتزت المطحنة اهتزازات عنيفة
سيطرت عليها بيدي بمجهود كبير، وراحت تنز بما يشي أن
سلاحها لا يستطيع الدوران حيث تعوقه القطعة الجهنمية، ثم
راح السلاح يصطدم اصطدامات مكتومة بالقطعة العجيبة،
وشممت رائحة احتراق عازل الملفات داخل الخلط ثم
بسرعة خرج الدخان من القاعدة ومن كل ناحية. نزعيت
الفيشة من الكهرباء قبل أن تحدث قفلة كهربية بالبيت ووقفت
مندهشاً أنظر إلى الخلط المحترق، وكانت زوجتي قد
حضرت على أثر انتشار رائحة الاحتراق، كشفت غطاء
المطحنة ورأت القطعة العجيبة فلم تتمالك نفسها وضحكت.

- ألا زلت تحتفظ بها؟ في البداية كسرت سننك، والآن
حرقت الخلط.

لم أَرِدْ، أمسكت بالقطعة التي صارت ساخنة، ووجدت
نفسي أقول:

- هل يمكن أن تستعيري لنا خلط أختك؟

أختها متزوجة وتعيش مع زوجها في الشقة المقابلة لنا
في البيت نفسه.

- وماذا ستفعل إذا احترق خلطها أيضاً؟

- أرجوكي استعيري لنا خلط أختك.

طاوعتني وأحضرت خلط أختها، لا بد أنها رأت في
عينيّ هذا التصميم الغريب والمتوحش والذي أحست به
والرغبة في الانتصار على هذه القطعة؛ ولأن خلط
أختها من البراون الألماني الأصلي استبشرت خيراً، لكن
الأمر انتهى إلى الكارثة نفسها. قلت في ضيق:

- سأستري خلطين الأسبوع القادم من معرض
الشرطة الذي سيقام في نادي سموحة بمناسبة
الصيف.

قالت زوجتي بدهشة:

- الصيف؟!!

- أجل.

ولم يعد أحد منا إلى الكلام مع الآخر بقية اليوم.

(٤)

شغلنتي بعض الأحداث الطارئة، من يعمل في الشرطة يعرف معنى ذلك، أرجأت النظر في القطعة اللعينة حتى أنتهي من هذه الأحداث، لم أكن أعرف أنني سأهلمها هذا الوقت الطويل حتى هجم علينا الصيف، لكن الذي حدث خلال هذا الوقت أن شخصاً ما لعله عباس المطراوي، البائع الذي باع هذه القطعة لي، في الحقيقة له جسم عباس المطراوي، ووجه تاجر الجملة المنير المريح، هذا الشخص كان يأتي إليّ ويجلس تحت قدمي كل ليلة، ويضع في حجره كمية صغيرة من البلح الإبريمي، ويبدأ في استخراج النواة منها، ثم يخرج من جيبه قطعة شبيهة بالقطعة التي أحفظ

بها، ويسكين حاد يبدأ في تقشيرها مثل القلم الرصاص، ويتساقط قشرها كبرو القلم في ورقة على حجره، ثم يبدأ في حشو البلح الإبريمي من هذا القشر، ويمد يده يجذب "سبرتاية" قريبة منه ينفخ فيها فتشتعل وينطلق منها بخور دون أن يكون فوقها بخور! ثم تظهر فوقها طاسة قطرها يزيد على المتر، طاسة نحاسية صفراء تميل إلى الحمرة، أخاف أن تهتز وتسقط وهي لا تهتز ولا تسقط وهو ينظر إليّ ويضحك على انزعاجي وخوفي ثم يلقي بالبلح الإبريمي المحشو ببرو القطعة داخل الطاسة التي يظهر فيها السمن البلدي فجأة يأخذ في التقليب بملعقة خشبية طولها لا يقل عن المتر، ثم يرفع الطاسة يقدمها إليّ بيديه فإذا بها لا يزيد قطرها عن عشرين سنتيمتراً، وأمسكها بيدي بينما يأخذ هو منها البلح، بلحة بلحة، مغموساً في السمن، ساخناً، محشواً بالبهجة، لامعاً كالكهرمان، ويضعه في فمي، وينزل منه العسل على جوانب شفتي، ويتركني ويخرج من الغرفة بسلام، مطفئاً النور الذي كان مضيئاً من مصدر خفي، وأجد شيئاً يتحرك في، وأجد نفسي آخذ زوجتي في حضني وأصبح بها في نهر من عسل كنت نسييت طعمه، وفي الصباح تنظر

إليّ مندهشة وأرى النعمة تطل من بشرتها، والفرح السحري
يطل من عينيها ، وتمسك بيدي قبل أن تنهض تقبل أصابعي
كأننى حقيقة راضية مرضية شبعانة مروية، وأدركت أنه
السر الذي يجب أن لا أقوله لأحد، ولا حتى زوجتي، ونسيت
أمر القطعة اللعينة التي أغاني عنها هذا الزئر الليلي، ثم
صرخت وجدتها وجدتها، إنها السكينة التي تحل للغز، كيف
فانتى ذلك، وبحثت عن القطعة كالمجنون، وجريت بها إلى
المطبخ وأمسكت بالسكين وضغطت عليها بقوة فانكسرت
فرحت أجرب بقية السكاكين حتى تكسرت كلها، وكانت
واحدة قد انخرست في كف يدي فجرحتني ولم أدرك إلا والدم
يغطي القطعة اللعينة، ويغطي يدي وزوجتي تقف مندهشة،
تركت كل شيء وغسلت يدي وربطتها بشاش بعد أن
وضعت فوقها الميركيروكروم، وأخذت القطعة اللعينة أعيدها
إلى مكانها مكتفياً بالمنام، لكن بالليل، لم يأت إليّ أحد،
وازداد ارتباكى في الصباح، وكثر عليّ الغم، وقلت لزوجتي
- استعدي سنذهب عشرة أيام إلى المصيف.

(٥)

كان المصيف حلاً سحرياً، فالهدوء والأمان ساعداني كثيراً بعد اختفاء زائر المنام الأسطوري، عدت إلى نسيان أمر القطعة اللعينة من جديد، كان من المقرر أن نمضي بالمصيف عشرة أيام فأمضينا عشرين ، ولقد ضجر الولد والبنات من المصيف الهادئ الآمن هذا وتركنا إلى فيلا جدهما في مراقيا حيث الصخب والحيوية، تمسكت أنا بالهدوء، والحقيقة أنني كنت أتمسك بالأمن، فالمصيف صغير، وفي المنطقة الخلفية لمعسكرات قوات الأمن، وهي منطقة يندر فيها الاستحمام، لكنها أصلح مكان للاستجمام! الوصول إليها براً يستلزم دخول معسكرات الأمن، وهذا غير مصرح به لأي أحد، والوصول إليها من البحر مسألة لم تعرفها جماعات الإرهاب حتى الآن.. وهكذا ساعدني المكان الهادئ الآمن على الاستمرار في المظهر غير العادي الذي تسبب فيه زائر المنام، وأحببت المكان جداً رغم أن النساء فيه يرتدين ملابس حشمة ولا ينزلن إلى البحر، وربما لذلك هربت البنات والشباب، فلقد سمعت أكثر من زميل يشكو من انصراف أبنائهم إلى مصايف أخرى للعائلة.. أطلقنا لقب "العجوز" على مصيفنا هذا، ومصيف "الوقت الضائع" لكنه

كان كالبلسم بالنسبة لي، في الصباح والبحر يستيقظ من
الظلام، ويشف لون مياهه، كنت أحس أنه قادم من عالم بعيد
من أجلي أنا، أن أراه وأتملى باتساعه وأرتاح، وأنه إنما
يفرش لي مياهه ليجلو عيني ويريح صدري ويوسع في
شرايين قلبي، وفي المساء كنت أشعر ساعة الغروب أننا
جميعاً، رجالاً ونساءً، ونحن نجلس هادئين على المقاعد
البلاستيك الناعمة البيضاء، أننا أبناء هذا البحر، وأنه أبونا
الطيب الرحيم قد ذهب بالليل لينام! أفكار كثيرة جميلة كان
ترد على ذهني، وقررت أن ألقى بالقطعة اللعينة في البحر
ولا أعود إليها أبداً، أجل، ما معنى إحليل التمساح، أصلاً،
وهل هناك حقاً تماسيح تكفي كل هؤلاء السياح؟ لا بد أن في
الأمر نوعاً من النصب، ولماذا لا يكون ما معي إحليل فرس
النهر، أو وحيد القرن، أو حتى فيل، وكلها حيوانات موجودة
في أفريقيا؟ لكنني وجدت أنني تركت هذه القطعة اللعينة في
البيت، وأخذتني الحمى العجيبة التي تدعوني لتعطيم هذه
القطعة رغم أنني في غير حاجة إليها، فتركت زوجتي
وذهبت إلى البيت مسرعاً، دخلت إلى الدولاب الذي وضعتها
فيه فوجدتها تنتظرني. بدت لي بأخايدها مثل عجوز

يضحك، يهزأ بي، ربما يشجعني، لا أعرف بالضبط، ذهبت إلى الهون النحاسي القديم الذي ورثته عن أُمِّي ووقفت في المطبخ ووضعت الهون فوق الرخامة وفيه وضعت القطعة ثم هويت عليها بيد الهون فارتدت اليد إلى أعلى وكانت ثقلت من يدي، أعدت المحاولة بقوة، ثم بقوة أكثر، فانكسرت الرخامة وسقط الهون على الأرض فقفزت إلى الخلف حتى لا يصيب قدمي، وانتثرت يد الهون من يدي وحدثت ضجة وجلبه غريبة اختلط فيها صوت النحاس بصوت البلاط بصوت أشياء أخرى غير مفهومة، وتراجعت أنا إلى الوراء أفكر في أمر هذه الكارثة الجدية، وتملكني غيظ وتصميم فعدت وأمسكت بالقطعة ووضعتها على العتبة وأحضرت مطرقة قديمة ثقيلة أحتفظ بها عندي مما خلفه أبي، وكنت أعرف أن شعري منكوش، وأن عيني جاحظتان، وأن عروفي تنتفض، وهويت بالمطرقة فقفزت القطعة من مكانها وتهشمت العتبة الرخامية، وخرجت أخت زوجتي تستطلع الأمر، رأيت شكلي فاندذهشت وخافت قلت لها "ادخلي" فدخلت ونسيت أنها يمكن أن تتصل بزوجتي أو زوجها فشكلي يدعو إلى الرعب لا شك، عدت أمسك بالقطعة اللعينة، ووضعتها

فوق البلاط وهويت عليها بالمطرقة فلم تتأثر، وتهشمت
البلاطة التي تحتها، نقلتها إلى بلاطة أخرى فحدث الأمر
نفسه، فتركت المطرقة ومددت كفي أرفع هشيم البلاط عن
الأرض حتى بان لي الرمال، ثم عدت مرة أخرى إلى
الطرق على القطعة فوق البلاط، بكل قوتي التي حين انهدت
كنت قد هشمت أكثر من متر مربع من البلاط، لكن القطعة
اللينة لم تتأثر.

جلست فوق الأرض محطماً، خلعت قميصي، تركت
العرق ينثال على جسمي دون أن أحاول تجفيفه، ولا بد أن
وقفاً طويلاً قد مضى لأنني رأيت زوجتي تقف أمامي
مندهشة! كانت القطعة اللينة قد انتشرت في ركن بعيد،
وكنت أركز عليها بصري، كانت أخت زوجتي قد اتصلت
بزوجتي التي راحت تنتظر إليّ ثم إلى القطعة البعيدة، ولما
كانت أختها تقف جوارها تصنعت الضحك وقلت:

- سأنهض لأتفق مع محل سيراميك، فرصة أن يتم ذلك
ونحن بالمصيف.

قمت وانحنيت بطريقة لا تلفت النظر إلى القطعة اللينة
والتقطتها لأخفيها في الدرج المسحور بالدولاب.

(٦)

قررت أن أنتهي من الأمر كله بإلقائها في البحر، لقد
عادت لي الأزمة بعد أيام المصيف، لم أرتبك، صرت واثقاً
في انفراج الأزمة بعد كل ضيق. لقد شغلت نفسي بموضوع
عربي، واستأففت لتركيب السيراميك. وقالت زوجتي بجد إن
هذه القطعة العجيبة جلبت النحس إلى البيت! لقد جرححتني
وطيرت سنتي وحطمت رخامة المطبخ وأرغمتني على
الاستدانة، وتذكرت كلاماً قديماً عن "العكوسات" التي قد
يتسبب فيها شيء عارض.

أخذت طريقني إلى البحر، إلى المنطقة الخالية في شاطئ
المكس بين الفئار وبائع السمك حيث يأتي "العرجية"
للاستحمام مع خيولهم، ضحكت وأنا أتخيل عددًا كبيراً من
ضابط الشرطة يقفون مثلي على شاطئ البحر يلقون بقطع
لعينة من إحليل التمساح إلى الماء، فكرة مجنونة لا شك.
وجدت على الشاطئ زحاماً من الناس والبوليس فارتكبت هل
يتحقق الخيال؟ فكرت أن أتراجع، بسرعة أدركت أن هناك
حادثة، فالمدنيون أكثر من البوليس، اقتربت وأنا أفكر أن

الأمر لن يزيد عن وجود غريق وربما طرد مخدرات قذفت
به الأمواج، كان الساحل الشمالي زمان أشهر طرق التهريب
للمخدرات، من يدري ربما لا يزال من داخل القرى السياحية
المغلقة طوال الشتاء! يالها من فكرة تستحق أن أرفع بها
تقريرى إلى الرؤساء، اقتربت، وجدت غريقاً قذفة الموج،
صوت عربة الإسعاف كان يأتي من ورائي، ابتعدت كثيراً
حتى لا أسبب إرباكاً لرجال البوليس، لحظات وعاد الشاطئ
إلى صفائه الشتوي. فراغ كبير وبياض سابغ ونسمة خريفية
منعشة وليس في الماء من أحد، فقط أسراب النورس تأتي
من الغرب ولا تصل أبداً إلى الشرق، تندفع حقاً إلى الشرق
لكنها سرعان ما تعود وتدخل في الدوائر المدهشة التي
تصنعها بقية الطيور، لمحت جندياً فوق الفنار، وسفينة بعيدة
تغادر الإسكندرية، كانت الشمس حانية فوق كل هذا الفراغ
وتأخذ طريقها إلى وسط السماء، لا أعرف لماذا فكرت في
لحظة أنني أنا سبب هذا الغريق، إنني مجرم يعود إلى مكان
جريمته دون أن يعي أن ذلك سيكلفه حياته. إحليل التماسح؟!
يا له من حل مجنون يجعل المرء في صلابة الفولاذ؟ ألم
يستعصي عليّ حتى الآن تحطيم القطعة؟! وماذا يحدث حقاً

لو تصلبت مثل القطعة؟ إن ذلك أمر مؤلم حقاً ويؤدي إلى كارثة محققة! ضحكت من الأمر كله، وسمعت صوتاً يناديني، يا إلهي، العميد فواز الذي خرج إلى التقاعد بعد أحداث الأمن المركزي في الثمانينات.

- كل هذه السنوات ولا تسأل عنا يا سيادة العقيد؟!

كان صاحب أفضال كثيرة عليّ وبمناخ الأب الروحي

لي

- يا باشا..

- لا تعتذر عن شيء، أعرف ظروف الشرطة الآن وظروف الحياة.

سكتنا لحظات حتى قال:

- اجلس.

ولم تكن هناك مقاعد فكاد يقول:

- اجلس على الأرض يا سيادة العقيد، لا أحد يراننا.

كان هو يرتدي بنطلوناً وقميصاً بكم فوقه بلوفر مفتوح

الصدر، جلسنا.

قلت :

- كان هنا غريق منذ قليل.

قال:

- أعرف. كل يوم تقريبًا يطرد البحر غريقًا. كثيرًا ما يكون أحد بحارة السفن الأجانب، لقد ازداد الغرقى جدًا حتى ليبدو لي أن القراصنة قد عادوا إلى البحر!

ضحكنا وعدنا قليلاً إلى الصمت ثم قال:

- لم تقل لي لماذا أتيت إلى هنا اليوم. بالنسبة لي أتى إلى هنا كثيرًا خاصة في الخريف؛ لأنه كما تعرف ليس لدي شيء أفعله.

- أنا في الحقيقة أتيت إلى هنا صدفة، كنت أقود سيارتي فرأيت الزحام!

وفوجئت به بقول باسمًا:

- أنا أعرف لماذا جئت إلى هنا.

ارتبكت، تذكرت أنه كان وهو في الخدمة، يعرف كل شيء تقريبًا عن الذين يعملون معه، كيف لم يستطع أحد أبدًا

أن يخدعه، خفت بحق أن يكون على علم بالقطعة اللعينة،
لكن كيف بالله يستطيع أن يعرف؟...

وقال:

- أنت كنت في أسوان منذ شهور!
- كيف عرفت؟
- من الصحف، الصحف نشرت أخبارًا عن الدورة
التدريبية ضد الإرهاب. لقد أدهشني هذا النشر. على
أي حال الإرهابيون يعرفون أن الوزارة تدرب
رجالها ضدهم حتى لو لم يتم النشر.
- أقصد كيف عرفت أنني كنت هناك؟
- في الحقيقة رأيته. كنت أقضي الشتاء عند أقارب لي
هناك. رأيته تشتري قطعة من... ثم رأيته تركب
السيارة قبل أن أناديه.
- كان يضحك وضحكت معه، حقًا إنه لعالم صغير. قلت
لنفسي، لكن ألم يكن أجمل لو رأيته في موقف آخر.

- لا تخجل كلنا نذهب إلى أسوان من أجل ذلك، لكن أنت لا زلت صغيراً وهذا يدهشني.
- أنا لم أشتريها لنفسي، أوصاني بها أحد أصدقائي.
- ابتسم ونظر إلى عيني، رأيت في عينيه أنه يعرف أنني أكذب. عاد يضحك ويقول:
- أحد أصدقائي، لواء سابق أيضاً، اللواء الدراموني، هل نسيته؟
- لا أحد ينسى الدراموني، على الأقل بالنسبة إلى اسمه.
- الدراموني يذهب عادة إلى أسوان في الشتاء ويشتري ما يكفي لمدة عام. له قصة عجيبة الدراموني هذا. في أول مرة لم يعرف ماذا يفعل ولا كيف يهشم القطعة التي اشتراها، وضعها في الخلط؛ احترق، وضعها على الأرض؛ فتهشم البلاط، حاول أن يقشرها بالسكين فقطع إصبعه، جاء هنا وألقى بها في البحر.

- سكت فكرت في لحظة أنه قد يقصصني، لكنني تذكرت أنه كان دائماً رجلاً واضحاً ومباشراً، استبعدت الفكرة. قلت:
- لكنك تقول إنه يذهب كل شتاء ليشترى ما يكفي لعام.
 - طبعاً، لقد تعلم كيف يستخدمها، الحقيقة أنا الذي أخبرته.

ضحكت بشراسة وقلت:

- لقد صرت خبيراً في ذلك إذن يا باشا.
 - طبعاً.
 - لكن .
- سكت فقال:
- تريد أن تعرف الطريقة.
 - أنا؟ لا.
 - أنت تريد أن تعرف، حتى لو لم تكن تريد فستحتاج أن تعرف يوماً..
 - إذن..

- الطريقة المثلى أن تبحث عن "بنان" يطحنها لك في مطحنة البن، أو نجار يربطها لك على "المنجلة" ويقوم ببردها بمبرد خشن ويتلقى البرادة على ورقة. هذه البرادة هي التي تستخدمها مع أي مشروب ساخن أو بارد..

أشرفت عيناى، كيف حقاً غاب عني ذلك، في أي بئر كان يختبئ هذا الرجل، راح يضحك من جديد ويتكلم:

- لقد فرح الدراموني جداً حين عرف بهذه الطريقة، وسافر إلى أسوان واشترى كمية تكفي لعام، وذهب إلى بنان صديق ثم..

وعاد يضحك بشراسة هذه المرة ويسعل حتى كاد يموت..

- لقد وضع البنان كل القطع التي اشتراها الدراموني في المطحنة، ولأمر ما انشغل بالحديث في التلفزيون تاركاً واحداً من صبياناه يدير المطحنة، لم يكن الصبي يدرك ماذا يحدث بالضبط، تصور أن ما

وضعه البنان نوع جديد من "التجوية" فوضع فوقها
"كيلة" من حبوب البن وطحن الجميع!

- واللواء الدراموني، ألم ينتبه؟

تساءلت وأنا أضحك معه.

قال:

- كان جالسًا على الكرسي يشرب القهوة، وسارحًا في
الخيال عما سيفعله الليلة والليالي التالية، والنتيجة
طبعًا كانت اختلاط إحليل التمساح بأكثر من عشرة
كيلو بن، لقد رأيت الدراموني ذلك اليوم، كان في
حالة من السوء لا تقارن، كان يضحك ويشد شعره
في الوقت نفسه.

قلت وأنا أغالب الضحك:

- كان يمكن أن يأخذ البن ويشربه.

- الدراموني لم يكن من هواة القهوة كما تعرف، قال
لي هل يمكن أن أشرب القهوة في هذا العمر. أشرب
عشرة كيلوات قهوة.

- حكاية عجيبة يا باشا حقاً.
 - لقد باع البنان البن بأسعار خيالية، هكذا أخبرني الدراموني الذي رفض أن يأخذ أي تعويض.
 - الدراموني كان رجلاً مستقيماً تماماً.
 - لقد تحسنت أحوال الناس في المنطقة وقلت المشاكل الأسرية.
 - والله حل معقول لمشاكل المجتمع يا أفندم.
 - لكن طبعاً الدولة لا يمكن أن تلجأ لمثل هذا الحل..
 - طبعاً. حل مجنون وحكاية مجنونة..
- سكت قليلاً ثم قال:
- وأين هي الحكاية العاقلة هذه الأيام.

حامل كتاب السحر

ناس كثير كانت تمشي في الشارع لكن الحر، الذي بدا لي قد أفرغ الدنيا من الهواء جعلني أرى الناس قليلين، متناثرين كيفما اتفق، بعضهم يقف يشرب الببسي كولا فاتحاً قميصه كاشفاً صدره، وبعضهم يقف على باب سينما مترو، وباب سينما ميامي على الرصيف الآخر، منتظراً موعد الدخول لحفلة السادسة والنصف، حريصاً أن يكون قريباً من هواء مكيفات المداخل، الذي لا يبتعد كثيراً عن الباب، والبعض يتسكع للفرجة على فترينات الملابس الجاهزة، أكثر النساء كن يقفن أمام فترينات الملابس الرجالية، أكثر الرجال كانوا يقفون أمام فترينات الملابس النسائية، هكذا رأيت، أو هكذا خيل لي، فالحقيقة لا أذكرها تماماً، ذلك أنه كانت بي رغبة أن أمشي مستديراً، أي في دوائر حلزونية، كما تدور الأرض حول الشمس، وأيضاً كما يدور القمر حول

الأرض، بدت لي هذه الرغبة مفاجئة حقاً، تذكرت، مبتسماً، أنها كانت عملاً من أعمال الحرب. نعم الحرب التي نسيها الناس بسرعة، أيام الحرب كنت أمشي هكذا، رغم أن الحرب كانت هناك، بعيدة، لا تلمني إذا لم أذكر مكانها بالضبط، فأنا يُخيل لي، كثيراً، أنني أقف فوق الجهة الأخرى من الكرة الأرضية، لذلك لا أعرف هل كانت الحرب في الشرق حقاً كما يقول الناس، أو في الغرب كما رأيت، أو كما خُيل لي، على أن ذلك ليس مهماً الذي يدهشني هو نسيان الناس للحرب بهذه السرعة، ودليل نسيانهم أنهم يمشون في خطوط مستقيمة مهما توقفوا، ويعرفون ما يريدون، فهم يحملون، غالباً، حقائب بلاستيكية بها أشياء اشتروها، أو أشياء يبيعونها، الوحيد الذي لم ينسَ إذن هو أنا، في الحرب الأولى كنت أمشي من اليمين إلى اليسار، في الحرب التي تلتها كنت أمشي أستدير من اليسار إلى اليمين، في الحرب الأخيرة كنت أمشي أستدير دورة كاملة من اليمين إلى اليسار، وأعود لأستدير من اليسار إلى اليمين، ربما لذلك ظللت واقفاً مرة في مكان واحد ثلاثة أيام، لكن في ذلك الوقت كان على وجوه الناس وجوم، لذلك لم يلتفتوا إليّ لم يصفني أحد

بالجنون، اليوم أرى الناس مزدهرة الوجوه، خاصة الفتيات
المرحات، والنساء الأكثر مرحًا؛ لذلك لا أستطيع أن أمشي
مستديرًا، ويُخَيَّل لي أنني مرتبك من شيء آخر غير ذكرى
الحرب، إنه وجه لم آلفه يقابلني من الأمام ولا يفارق وجهي،
ويقابلني من الخلف أيضًا . آه إذن لقد استدرت دورة كاملة
وأنا لا أدري، لكنه يبدو مصابًا في جبهته، هناك خيط من
الدم الثقيل ينزل بين العينين ويمشي على قصبة الأنف، لكني
أرى نفسي جالسًا في سينما مظلمة أتفرج، وحيدًا، على فيلم
فيه شخص مجروح الجبهة، والحقيقة أنني كنت أقف أمام
فترينة محل ملابس جلدية، معظم الملابس جلد أسود، القليل
منها بني، الأحزمة مبرقشة، من جلد الثعابين، ثعابين البر
والبحر، اليايس والماء، وحافظات النقود كذلك لكن بين
الحافظات والأحزمة مناديل وشيلان بيضاء وفوقها خناجر
مسنونة وحادة لها مقابض من الجلد أيضًا مرسوم على
بعضها علامة الحياة الفرعونية وعلى بعضها وجه نفرتيتي
والقليل منها بلا رسوم، وكلها تبدو ملساء لامعة مثل النصل
نفسه، كانت هناك أيضًا خناجر أرفع تطل نصالها من جيوب
السترات الجلدية السوداء والبنية معًا، المعلقة حول التماثيل

باهتة الابتسامة شمعية الوجوه عمياء العيون رغم الرموش
الطويلة للنساء، فكرت ربما ما أراه من خناجر وجلد هو
سبب ما رأيت، أو خيّل لي، من دم ينبثق من جبهة الوجه
الذي يحاصرني من الأمام والخلف ولم يسبق لي أن رأيته
أو صاحبه، لكني وأنا ألقت لأعواد المشي رأيته حقيقة، أجل
ولم يُخيّل لي، مد يده إليّ فمددت يدي وهزها بعنف وشد
عليها بقوة مبتهجا للغاية.

- أتذكرني يا أستاذ؟
- لاتواخذني..
- ليس مهماً. إنني سعيد جداً برؤيتك.
- أشكرك جداً.
- ألا تذكرني حقيقة يا أستاذ؟
- ولم يعد لائقاً أن أظل أقول الحقيقة.
- يُخيّل لي أن رأيته من قبل، سامحني إذا كنت نسيت.
- غير معقول أن تنساني يا أستاذ، إنني أحبك جداً، بالله
تأتي معي تشرب الشاي.

والتفت حوله، لا بد أنه أدرك أننا في منتصف الشارع،
لا مقهى إلا في أول الشارع من ناحية ميدان طلعت حرب،
مقهى ريش الشهير، أو مقهى الأمريكيين في نهاية الشارع
عند التقائه بشارع فؤاد. قلت:

- أشكرك جدًا. الآن تذكرت أنني رأيتك كثيرًا من قبل،
كيف حالك؟ الحقيقة أنني كنت أكذب، لا أعرف كيف
اندفعت هكذا في الكذب، لكنه بدا لي شديد الطفولية
والعذوبة وهو يقول:

- إنني سعيد يا أستاذ أنك تذكرتني، أنا ما زلت أكتب،
تصور!!

إنه هو كاتب عرض عليّ شيئاً من إنتاجه القصصي أو
الشعري يوماً. تنفست مرتاحاً، قلت:

- رائع، رائع جدًا.

نظر إليّ فجأة متسع العينين، لقد بدا مندهشاً من كلامي
غير مصدق ما أقوله.

- لماذا يكون ذلك رائعاً يا أستاذ؟

ارتبكت بحق، ولأني لمحت كتابًا قديمًا في يده فكرت
أسأله عنه، لكن قبل أن أسأله قال لي وهو يقرب الكتاب
مني:

- هذا كتاب سحر.

- سحر؟

- أجل، انظر.

وقدم الكتاب إليّ، فتحته فوجدت به دوائر ومربعات
ورموزًا فرعونية وحروفًا صينية ورسومًا لحيوانات معروفة
وغيرها غير معروف وكتابة بالعربية والإنجليزية وزحام
شديد، وأحببت الابتعاد عن الموضوع فقلت:

- لكن حقًا كيف رأيتني؟

عاد مبتهًا من جديد وقال:

- أنا كنت أمشي معك من أول الشارع.

- حقًا؟ لماذا لم تكلمني إذن؟

- كنت أمشي على الرصيف الثاني ، وكنت أنت كلما

وقفت وقفت أنا وكلما مشيت مشيت أنا، حتى عندما

رأيتك تستدير وجدت نفسي أستدير، أحسست أنني
مربوط بك يا أستاذ، كان شيئاً جميلاً بحق ، هل كنت
تحس بي يا أستاذ؟

سألني وهو في سعادة طفل وزهوه، قلت فاتحاً له قلبي
متأثراً بحق:

- نعم .كنت أحس بك.
- يقولون إن الأشعة تنتقل من العيون إلى الأجسام مهما
كانت المسافة بعيدة. وأنا كنت دائم النظر إليك لابد
كنت تحس بي يا أستاذ..
- لا أكذب إذا قلت إنه شملني إحساس الأم، الأم بالذات،
حين تفرح بابنها العائد من غربة، أو حرب، ذلك الإحساس
الذي يعطيها سبباً حقيقياً للبقاء في الحياة.. قلت:
- كنت أحس بك من أول الشارع وأنتظر عبورك.
- أشكرك يا أستاذ .إن هذا الكتاب مهم جداً لي الآن،
الدنيا أصبحت صعبة جداً يا أستاذ، ليتني أراك مرة
أخرى.
- لا بد أنك ستراني.

- هل تمشي هنا كثيرًا يا أستاذ؟
 - في شارع سليمان؟
 - أجل .
 - أمشي كثيرًا جدًا.
 - إذن سنلتقي كثيرًا يا أستاذ أنا أيضًا أمشي هنا كثيرًا
تصور إنني أحب هذا الشارع جدًا.
 - أنا أيضًا أحبه جدًا..
 - إذن إلى اللقاء يا أستاذ.
- وصافحني بشدة. هزَّ ذراعي بقوة.. تركني وأخذ طريق
العودة في اتجاه شارع فؤاد، كانت سينما مترو تخرج
جمهورها، وكذلك سينما ميامي، ولم تعد لي فرصة أن أراه،
تبخر كأنما حملته غيمة في فضاء..

الطريق إلى العشاء

لنقف. قال ذلك وتوقف بالسيارة؛ ولأنني غريب لم أعلق ، هو أيضًا صاحب الدعوة إلى العشاء:

كان الوقت غروبًا، وبقيت أشعة واهنة لا زالت تتيح لنا الرؤية، والمصابيح لم توقد على جانبي الطريق الذي كان قصيرًا، فطوله لا يتجاوز مائتي المتر، لكنه كان واسعًا يزيد عرضه عن ثلاثين مترًا.

كان طريقًا مسفلتًا بسلامة بحيث لا تلمح فيه ارتفاعًا أو انخفاضًا ، لكنه كان قديمًا حال سواده إلى الرمادي القاتم فلا تلمح فيه انعكاسًا لأي ضوء.. وكانت هناك في بدايته القرية منا علامات عبور المشاة البيضاء التي تمتد بين الرصيفين، وعلى جانبي الطريق بيوت منخفضة محاطة بحوائط، لكنها بيوت مغلقة النوافذ في الغالب، والمفتوح منها لا يطل منه وجه أحد. قلت:

- سمح لي أن أحسد سكان هذا الشارع على هذا الهدوء.

ابتسم وقال:

- لا يوجد هنا سكان، معظم هذه البيوت ورش صغيرة.

- عجيب.

هتفت هكذا على طريقة أهل هذه البلدة التي زرتها من قبل منذ ثلاث سنوات، وقال هو:

- الأعجب أن مسئول الحي قرر سد هذا الشارع من الناحية المقابلة. ومنع مرور أي سيارات أو مركبات فيه .

ضحكت وقلت:

- ربما ليوفر الراحة لأصحاب الورش والعمال.

قال:

- هذا ما حدث، لكن لماذا نسيت حكاية هذا الشارع؟

باغتني بالسؤال، وكان يضحك ويهتز صدره، وكنا
نزلنا من السيارة، ووقفنا فوق أول الرصيف القريب عند
علامات المشاة البيضاء، وعاد يسألني..

- ألم أحدثك عنه في خطاباتي؟

وقفت مندهشاً أحاول أن أتذكر.

- هل تتسى بهذه السرعة؟ لقد كتبت لك أيضاً عن ذلك
في خطابي الأخير.

قلت حدثتني لقد تذكرت. لكن..

- انظر قليلاً إلى حركة الناس وستأكد مما كتبته لك.

ورحت أنظر إلى شابين يأتیان من نهاية الشارع يمشيان
على الرصيف المقابل لنا حتى إذا وصلا إلى نهايته أماناً
عبرا الشارع فوق علامات عبور المشاة ووصلا إلينا ثم
تجاوزانا دون أن يلقياً بسلام.

- أرايت؟

سألني صديقي من جديد، وكنت أنا لا زلت أتابع النظر
إلى القادمين من عند نهاية الشارع، أو الخارجين إليه من

أزقة جانبية بين البيوت الهادئة كانوا كثيرين يمشون على الرصيف الذي نقف فوقه أو على الرصيف المقابل لنا حتى إذا وصلوا إلى نهاية الرصيفين من ناحيتنا عبروا فوق خطوط المشاة البيضاء وواصلوا مشيهم بعيدًا عنا، قلت مرة أخرى:

- عجيب!

والحقيقة أنني حتى هذا الوقت لم أكن أفهم أي معنى لأي شيء يحدث أمامي، لكنه هكذا قلت مدعيًا الدهشة حتى يتأكد أنني لا زلت أذكر ما كتبه لي في رسالته، والحقيقة أنني لا أذكر منه أي شيء، ربما قلت ذلك أيضًا خلاصًا من الأمر كله حتى نلحق بالعشاء، لكني رأيته يضحك ويهتز ثم قال:

- ها هي مجموعة تأتي من خلفنا تابعها.

كان عدد منها يعبر خطوط المشاة إلى الرصيف الآخر، وعدد استمر يمشي فوق الرصيف الذي نقف عليه، قال:

- سترى أن هؤلاء أيضًا لن يعبروا الطريق من أي نقطة إلا عند النهاية.

- لماذا؟

نظر لي بدهشة غير المصدق وقال:

- لأنه عند النهاية توجد خطوط عبور المشاة.

قلت حتى أخلصه من أي فكرة تكون قفزت إلى ذهنه
عنى ككاذب أو مستخف بالمسألة:

- لكن الشارع مسدود عند نهايته.

- لقد وضعوا الأحجار بعد خطوط عبور المشاة
القديمة، هناك في النهاية زقاقان يدخل إليهما أو يأتي
منهما الناس.

تابعت النظر إلى الذين يمشون فوق رصيفنا باعتبار أن
الذين عبروا من أمامنا إلى الرصيف الآخر لا يمكن أن
يعودوا ويعبروا الشارع مرة أخرى.

ورأيتهم حين بلغوا نهاية الشارع يعبرونه فوق خطوط عبور
المشاة، ولا أعرف لماذا نظرت إلى الرصيف الآخر. رأيت
واحدًا سبق له العبور من أمامنا يقف ثم يلتفت ليمشي بضع
خطوات على نفس الرصيف ثم يعود ويعبر فوق الخطوط
إلى رصيفنا ويختفي في الزقاق الذي حدثني عنه صديقي..

أغمضت عينيَّ غير مصدق، ثم فتحتهما، وتذكرت كل ما كتبه لي وسمعته يسألني:

- ها، تريد أن تظل واقفاً؟

سألته:

- منذ متى صدر قرار مسئول الحي؟

- منذ عام.

- عام كامل.

- عام كامل ولا أحد يريد أن يصدق أن هذا الشارع لا

تمشي فيه المركبات، كل أنواع المركبات يا أخي، لا

أحد يريد أن يصدق أن الشارع بعد قرار مسئول

الحي كله للمشاة يمكن أن يلعب فيه الناس أيضاً.

انظر، حتى النساء، حتى الأطفال، لا يصدقون..

كانت هناك مجموعات تمشي على الرصيفين بينها نساء

وحولها وأمامها أطفال، ولم أشأ أنتظر لأرى فمشيت ومشيت

خطوتين فقط وتوقفت وقلت:

- انتظر قليلاً.

- إيه لا تريد أن تلحق بالعشاء؟

- ما رأيك لو مشينا أنا وأنت في الشارع؟

لصديقي هذا وجه يحمل عَيْنين مندهشتين دائماً، لكن شاربِه الكَث يعطيه بعض جهامة إلا أن فيه روحًا طفولية تنبثق فجأة إذا أعجبتَه فكرة ما، وحين تنبثق هذه الروح الطفولية تتسع مساحة الوجه للدهشة وتراجع الجهامة المكتسبة بالشارب، وهو الآن يصفق طرِبًا ويشيع في وجهه الفرَح ويقول كأنه داخل إلى معركة حربية:

- هيا ، تقدم وسأُتبعك .

وتقدمت أنزل الرصيف إلى أرض الشارع .كانت المصابيح قد أضيئت فبانَت لي الأرض الرمادية كالحة تماماً، مشيناً وسط الشارع، وحاولنا أن لا ننظر مباشرة إلى الناس فوق الرصيفين، مشينا ببطء، وإمعاناً في أن نبدو منسكعين حقيقين رحنا نقرب ونبتعد من بعضنا كأننا لا يشغلنا شيء ولا وقت. لكنني كنت ألاحظ ازدياد أعداد الناس على الرصيفين، رجال ونساء وأطفال حقيقيون لا أعرف فيما يفكرون بالضبط لكن أحس بنظراتهم إلينا. أحسها تخترق

جسمي. وحين وصلنا إلى نهاية الشارع عدنا نقطعه بنفس الطريقة إلى أوله، والناس تتغير، تظهر منهم جماعات جديدة توالي النظر إلينا ويزداد إحساسي بنظراتهم وهي تخترق جسمي، لكن أيضاً بدأت أفهم شيئاً من خلال نظراتهم، غيظ ودهشة ممزوجة بغضب وسخرية، وحين وصلنا إلى أول الشارع عدنا من جديد، حتى إذا ما وصلنا إلى منتصفه، وبدأنا ندرك أنه لم يشاركنا أحد في النزول من فوق الرصيف ولو خطوة واحدة، رأيت الناس ينصرفون عنا بنظراتهم، لكن تزداد سرعتهم قليلاً، وخيّل إليّ وربما كان ذلك حقيقة، أتي رأيت بعضهم يجري، وتوقفنا، ولا أعرف هل توقف صديقي لأنني توقفت أم توقفنا معاً في لحظة واحدة، الحقيقة أنني توقفت؛ لأنني أدركت أننا منذ نزلنا إلى الشارع توقفنا عن الكلام! كانت ثلاثة أعوام قد مرت منذ زرت هذا البلد أول مرة، وبالطبع كانت هذه أول مرة أراه بعد لقائنا البعيد، ولا أظن أن الإنسان يحتاج لأكثر من ثلاثة أعوام حتى يجد شيئاً يقوله، لكن هذا ما حدث، ورأيت صديقي يرتعش قليلاً وترتعش أصابعه وهو يخرج من جيب قميصه علبة سجائره وولاعة مذهبية، ورأيت ازدياد ارتعاش

أصابعه وهو يقدم لي سيجارة، وارتعاش أصابعي وأنا
أخذها، وقال بصوت خفيض:

- يا أخي أشعر كأني لا أرى أحدًا فوق الرصيفين.

كان ذلك يحدث لي أيضًا، لكنني كنت غير قادر على
الكلام، وسمعته يقول بصوت مخنوق:

- ألا زالت القمة بعيدة؟

كان يعني قمة الجبل الذي نصعده، وكان يخاف مثلي
السقوط إلى السفح العميق. هكذا كان إحساسنا ونحن نعاود
المشي بحثًا عن الرصيف الجميل..

١٩٩١

صائد المجانين

لماذا يكثر ظهور المجازيب في المدينة صيفاً؟ لا يكفي صفاء الجو سبباً لذلك، الوقت الآن ليس صيفاً، لكنه توقع ظهور أحدهم، وكالعادة ظهر بعد توقعه بثوانٍ، ورأه يأخذ طريقه إليه وهو واقف تحت المظلة. لقد نمت لديه حاسة غريبة تنبئه بظهور المجازيب فيظهرون، ولقد جرب أن ينتبه لذلك الحدس المفاجئ الذي يتمدد في صدره مباغتة معلناً ظهور مجذوب ووجده دائماً صادقاً، وحين جرب أن يعلن لنفسه، بإرائته، ظهور المجذوب، خاب ظنه يغافله الإحساس دائماً في البداية، ولا يشعر إلا بعد أن يكون قد ملأ الصدر بقلق مجهول المصدر، وملأ الفكر بحيرة مباغتة، ثم يراه أمام عينيه، الحدس نفسه يضيء، معلناً ظهور المجذوب الذي ما يلبث أن يظهر، بعد ذلك يتجه المجذوب إليه، إنه لا يحدس ذلك، إنه يعرفه معرفة يقينية من زمان!!

يبتسم في كل مرة يرى فيها مجذوبًا يتجه نحوه حتى يبدو أن المجذوب قد انحرف عنه، يظهر في النهاية أنه، المجذوب، اختار قوس دائرة كبير ينتهي إليه.

كانت البداية في طفولته، حين كان أبوه يصحبه معه في مشاويره، لا ينسى كيف كان أبوه يقف على محطات الأوتوبيس أو الترام أو القطار شاردًا دائمًا، كان يمكن له أن ينساه، ولقد حدث أكثر من مرة أن تحرك الأب ولحق هو به بعد أن صرخ يناديه فانتبه الأب وتوقف. يمسك الأب بعد ذلك بيده الصغيرة ولا يتركه إلا في البيت.

لا يذكر أول مرة رأى فيها مجذوبًا، فقط يذكر أنهم كانوا كثيرين في شوارع المدينة، في الصيف والشتاء وسائر الفصول، ويذكر أنه لم يجد مرة اختلافًا في نظراتهم السعيدة، ولا في قلمي أحد منهم حذاء، ولم يحدث أن رأى أحدهم في جلباب نظيف، دائمًا هم منكوشو الشعر، لم ير جنازة لمجذوب ذي شعر أبيض، لعلهم يموتون مبكرين، لم ير جنازة لمجذوب أصلاً. يسمع أنهم يموتون في حوادث الطرق، أو غرقًا في البحر والترع.

على أي حال لقد تشابهوا في كل شيء إلا طول ذقونهم،
الجميع يتركونها ، لكن هناك من كان حليق الذقن دائماً،
وظل هذا يحيره، تماماً كما حيرته في البداية عيونهم التي
هي غالباً حمراء كعيون القطط في الظلام.

عندما تقدم أول مجذوب نحوه جفل وتراجع بسرعة
ممسكا بساق أبيه "لا تخف هذا مبروك" ولم ينس تعليق أبيه
أبداً. رأى أباه يخرج من جيبه قطعة معدنية، لا بد أنها كانت
قرش صاغ، ويعطيها للمجذوب الذي راح يضغط عليها
بأسنانه، ثم يبتسم لأبيه، ومشى مستمراً في الضغط عليها
بالأسنان حتى ظنه سيأكلها.

لم ينس كلمة «مبروك» عن المجاذيب لكنه ظل خائفاً
منهم، في الثامنة، هكذا تقول أمه دائماً، كان قد خرج معها
في صحبة جدته القادمة من الريف، حين قابلهم أحد مجاذيب
المدينة جفل وخاف وأمسك بجلباب أمه، لكن جدته قالت
"لا تخف إنه مبروك" تماماً كما قال أبوه من قبل، لكنها فعلت
ما لم يفعل الأب، أمسكت بيد المجذوب ومشت بها على
رأسه هو، كان المجذوب يضحك بصوت هادئ ممتد،

وانطلق بمشي مبتهجا يقفز في الفراغ، بينما كان هو يرتعش
ويقاوم البكاء.

لماذا فعلت جدته ذلك به؟! لنقل البركة من المجنوب
إليه هكذا سمعها تقول، لتضمن له عمرا أطول، لكنه نادرا ما
يتذكر ذلك وبالقسط هو يدرك الآن أنه لا معنى لذلك أيضا
لكن هل يكون ما فعلته جدته هو سبب اتجاه المجاذيب إليه
كلما مروا من أمامه في أي مكان وأي وقت في المدينة؟
عادة يقترب البهلول منه يتأمل بهدوء، ثم يمضي، يبدو كمن
كان يتعرف عليه، واطمأن أنه هو ما يبحث عنه ، اطمأن
على وجوده؛ لذلك يمضي سعيدا رافضا أي نقود يقدمها هو
بدوره إليه، يحدث ذلك حين يكون وحده واقفا أو ماشيا في
طريقه، أو حين يكون بين أصحابه في المقهى أو في نزهة
أو في أي مكان، لقد كان يظن أن ذلك مرتبط بمدينة فقط،
لكنه حين انتقل إلى القاهرة التي رأى مجاذيبها أكثر، ظل
الحال كما هو لم يتبدل، يحدس ظهور المجنون؛ فيظهر
ويتجه إليه يصافحه أو يبتسم له بعد تفحصه، لماذا يزداد
المجاذيب في القاهرة، ربما لكثرة مساجدها والأصح أنها
محاصرة بالريف، من الشمال والجنوب، ومن الريف يأتي

أكثر المجاذيب إلى المدن، أجل، هؤلاء المجاذيب ليسوا أبناء المدينة، إنهم غفل تماماً، إنهم أهل الريف في حالة غير مكتملة ، لقد صار خبيراً في أنواع المجايب هكذا يُخَيَّل إليه لكنه ظل دائماً مهتماً بأن يعرف لاقتراب المجاذيب منه سبباً آخر غير ما فعلته جدته، أجل، لا بد من وجود سبب مقنع هل يكون لديه استعداد خفي للجنون يراه هؤلاء البهاليل؟ قال ذلك لأصحابه أكثر من مرة وهو يضحك، لكنه حين ينفرد بنفسه، خصوصاً بعد أن ينتصف الليل، في اللحظات المتفردة من الصمت الجليل الذي يغشى الدنيا، كان يشعر بشيء من الصحة فيما يقوله لأصحابه من أنه كثيراً ما رأى نفسه يمشي أمامه مجذوباً!.. أو نائماً فوق سطح البيت، تماماً كما فعل السيد البدوي ، زاهداً في الطعام والشراب، ولا يكف عن الصياح حتى مات! لكنه لم يكن يحب أن يصدق ذلك . إنه يميل إلى تفسير حماته حين حدثتها ابنتها عن ظاهرة اجتذاب المجاذيب إليه، قالت حماته: إن في وجهه ألفة وطيبة، لكن الابنة، وزوجته الآن، قالت إن أمها لا تريد أن تقول صراحة إن في عينيه بريقاً جذاباً لا يختلف عن البريق الذي في عيني المجانين، إنه لا ينسى كيف نهرت

حماته ابنتها - زوجته الآن حيث يجب أن يؤكد ذلك لنفسه دائماً - بعنف وجدية وأمرتها ألا تعود لمثل هذا القول. لكنه حين عاد إلى البيت، ولم يكن قد تزوج بعد تلك الليلة التي دار فيها هذا الحديث، جعل ينظر في المرأة التي ينظر فيها كل يوم، لم يجد أي علامة على الجنون، لكنه لم ينقطع عن النظر إلى المرأة بين وقت وآخر، ومن المؤكد أنه كان يفعل ذلك لوقت طويل في مساء كل يوم يقابل فيه مجذوباً في الصباح، ومرة بعد مرة لاحظ حزناً شفيفاً ينمو على وجهه، وفي قلب عينيه، حزن جميل يدفع برقة بالدموع إلى عينيه بلا سبب، وتذكر بقوة اليوم الذي قربته فيه جدته من المجذوب، كان يتذكر كلام أمه عن ذلك اليوم، لكنه الآن تذكر الحادث نفسه، رآه رأي العين حقاً، أحس بيد المجذوب، وهزير ضحكه! وأسنانه غير المنتظمة، ورأه يقفز في فراغ الشارع، كان الوقت مساء المصابيح الكهربائية تلقي بضوئها الأصفر على جلباب المجذوب القاتم، إنه يرى الآن حتى تشقق كعبي قدمي ذلك المجذوب، وأمسك بنفسه أكثر من مرة متلبساً بالرغبة في أن يسافر إلى مقام السيد البدوي، وأمام ضريحه إذا سافر بالفعل، فكر كيف - حقاً - استطاع

المرور من بين كل أولئك المجاذيب الذي قابلهم في الطريق منذ نزل من القطار إلى المحطة ، خُيِّلَ إليه أن مدينة طنطا هي مركز مجانين العالم، وأنها هي التي تقذف المدن الأخرى بالمجانين وفكر أن يتحرى هذه الحقيقة بأن يسافر إلى مدينة "دسوق" ويقارن بين مجانين سيدي إبراهيم ومجانين السيد البدوي، ويرحل إلى وجه قبلي، إلى قنا وسيدي عبد الرحيم القناوي وإلى أسوان وسيدي الشاذلي، وإلى كل بقعة فيها ولي له أتباع ومحبون عقلاء ومجانين، ولما بدأ يصعد إلى سطح البيت في أوقات متفرقة تساءل: هل الجنون مرض معدٍ؟ لم يحدث من قبل أن صعد إلى سطح العمارة التي يسكنها، حتى إيريسال التلفزيون الخارجي لم يشتره، استخدم الايريسال الداخلي الصغير الأنيق، واكتفى من التلفزيون بقناة واحدة تمنى أن تختفي بدورها، لم يسمع من قبل عن مجنون أصاب عاقلاً بالعدوى، عليه إذن أن يحذر، لا يترك قدميه تسوقانه إلى السطح فذلك في ما يبدو تحقيق لرغبته المكبوتة أن ينهي حياته على طريقة السيد البدوي ، وأن يكف عن الذهاب إلى موالد الأولياء، أن يستمع إلى كلام زوجته التي يراها تتألم من أجله، الآن تحذره ، تقول له إنها كثيراً ما تسمعه يبكي

بالليل، إنها تستيقظ فزعة على صوته، يندهش من كلامها عن ارتفاع الصوت، يقول لها إنه يفعل ذلك بصوت لا يكاد يسمعه أحد، تسأله لماذا يفعل؟ يقول إنه لا يعرف سبباً محدداً، لا يعرف ما الذي يوقظه وما الذي يدفعه للبكاء، تقول إنه لا يليق به أن يبكي من الأصل وهو بدوره يدرك أن كلامها صحيح، لكنه لا يستطيع أن يحدثها عن تلك الأيدي البيضاء المنيرة التي تأتي من الفضاء تربت على كتفه وتمضي ، وهو يكاد يرتفع عن الأرض رغبة في اللحاق بها لكن العجز يصيبه فينظر حوله ساكناً فلا يرى إلا الضوء الذي صاحب الأيدي الكريمة وهو يزداد شدة فوق مدينة تنام. إن شدة الضوء تصل إلى الدرجة التي تحمله إلى التلاشي، إلى العدم ذاته إلى منطقة أشبه بمناطق انعدام الوزن، نوع من الأثير الذي يلحق به الإنسان في فترة نقاهة من مرض، أثير مشبع بالفرح الطفولي يدخله خفيفاً ويعود منه خفيفاً فيتسلل من الغرفة إلى الصالة حيث المرأة الكبيرة المثبتة في الحائط ويضيء النور بعد أن يحكم إغلاق باب غرفة النوم على زوجته، وباب غرفة نوم ولديه، فلا يصل إلى أي منهم ضوء يمكن أن يوقظه، يشرع في النظر إلى المرأة، يدرك

أنه لم يضيء النور وجده في الأغلب مضاءً من مصدر غير مرئي يقفز في فراغ الصالة يكاد رأسه يصطدم بالسقف، يزداد خفة ويشرع في البكاء وهو يشعر بجسده يشف ويرق ليصير خيطاً في فضاء نسيم.. ترى هل هكذا يكون البهاليل، هل الخفة من مظاهر العته. يا للسعادة التي تشع في روحه وجسده؟! هل قال ذلك؟ إنه لا يشعر إلا بأنه روح خالص.

حدثته زوجته عن ذلك الرجيم القاسي الذي فرضه على نفسه، لم يفعل ذلك حقاً ، فقط صارت نفسه تعاف الطعام، إنك تفقد الكثير من وزنك في وقت قياسي وهذا خطر هكذا تقول زوجته وهو يزداد سعادة يوماً بعد يوم، ويتمدد فيه حنين إلى شيء مجهول.

الحنين، الحنين، ذلك الضوء السحري الذي يسري في أجساد الشيوخ، بات يشتعل في جسده هو الذي لم يصل إلى الأربعين بعد، لكن إلى أي شيء يحمله الحنين، لا يدري بالضبط لقد صار مبتسماً طول الوقت. فرحان باللقاء مع اللاشيء عيناه الآن لا تنزلان عن الأرض، يراه الناس في الشوارع يوقف المجانين وينظر في عيونهم ويضحك يتملى عيونهم لوقت طويل ثم يمضي ضاحكاً ومسرّعاً ومبتعداً.

لم يعد ينتظر المجذوب حتى يقترب منه كما كان يحدث في الماضي، هو الذي يتقدم نحو المجذوب يتأمل عينيه لبعض الوقت ثم يتركه ويجري بعيداً وهو حقاً الذي يوقف المجذوب، وهو حقاً الذي يبدأ في النظر إليه. هكذا يراه الناس، لكنه يشعر فجأة بنظرات المجذوب وكأنما هو، المجذوب الذي يبدوه بالنظر فيفر من أمامه! احمرت عيناه هو أيضاً وبللها الندى المترقرق، لم يكن ذلك أبداً من غبار الخماسين التي بدأت تهب على المدينة، ولا حزناً على زوجته وولديه الذين بحثوا عنه في شوارع المدينة وكلما عثروا عليه هرب من أمامهم واختفى كان دائماً بعد أن يختفي ، يقف لحظات متألماً، يتذكرون بلا شك، صورة غائمة قديمة لزوجة لا تكف عن الضحك والطفلين لا يكفان عن المرح، لكن لا يقين الآن، تهب الريح فيمشي في مواجهتها، لا تنتهي ولا يكف عن المشي في مواجهتها يريد أن يجد منفذاً ينفذ منه إلى مصدر الريح، دائماً تواجهه المباني تسد الطرقات ، لكنه وجد أخيراً طريقاً يخرج من المدينة إلى الفضاء الواسع، ترامت أمامه الصحراء ورأى بعينه دوامات

الغبار الخماسينية، ترقص بلا نهاية فراح يرقص هو أيضاً
طرباً ويجري آخذاً طريقه وسط الرمال.

١٩٩٥

تمارين على الأحلام

حاولت، بصدق، العودة إلى الأحلام فور صعودي إلى الترام، بدا الأمر نوعًا من الارتباط الشرطي رغم مرور عشر سنوات لم أركب فيها أي مركبة من المواصلات العامة، وكالعادة ما كاد الترام يتحرك حتى كان قد اكتظ بالركاب إلى درجة لا تسمح لأحد بالحركة إلا في الحلم، هكذا كنت أفكر قديمًا، وهكذا أفكر الآن.

لم أشأ النظر إلى وجوه الناس، فرجل مثلي يعرف التدهور الشديد الذي لحق بالحياة لم يكن ليتوقع جديدًا في وجوه ركاب المواصلات العامة، ولم أنجح في استدعاء حلم، أي حلم.

مرت مسافة محطة كاملة مشبعة بالعرق والاختناق، ولم أمسك بحلم واحد، حاولت خلال مسافة المحطة التالية ولم أنجح، تذكرت فقط أنني في صباي فكرت مرة أن أحفر ثقبًا في الأرض، وأستمر في حفره حتى أنفذ من الجانب الآخر للأرض بالقرب من أمريكا أو اليابان أو في قلب المحيط الباسيفيكي، وتذكرت أنني قرأت بعد ذلك عن برتراند راسل وكيف حدث أن فكر في صباه في فكرتي نفسها، تضابقت طبعًا ذلك اليوم؛ لأن راسل صار عالمًا وفيلسوفًا، وأنا

صرت مدرسًا بسيطًا، رغم أننا فكرنا في شيء واحد في سن واحد تقريبًا.

- لا تحزن.

فَتحَت عينيَّ على اتساعهما دهشة، سمعت صوتًا حقيقيًا يقول لي ذلك الرجل القصير الذي يكاد رأسه ينطحن بين صدري وظهر الرجل أمامي يرفع عينيه إليَّ ويتسم ، إنه أصلع، لا يمكن أن يكون هو تذكرت أشياء شخصية ولم أفه بكلمه واحدة، لا بد أن صوتًا صادرًا من أعماقي يواسيني، ولا يجب أن أشغل نفسي عن محاولة الإمساك بحلم ولو قديم.

مرت مسافة محطة ثالثة، مسافة طويلة بطيئة، ولم أنجح ، الأحلام عادة إذا انقطعت لا تعود.. هكذا فكرت يائسًا أنا الذي بلغت قدرتي قديمًا على الأحلام أي كنت أحدد لنفسي الحلم الذي سأحلمه، ولم يكن الأمر يحتاج إلى أكثر من تمرين على التركيز في أمر ما، أو فكرة معينة، كان أصدقائي لا يصدقون ذلك قط، ولم أهتم بأن يصدقوني، كنت أكتفي بما أفعل، وأعرف أن أحدًا لن يصدق أحلامي إلا إذا شاركني فيها، وقررت في النهاية أن أحلم بأصدقائي، ولم

أستطع أن أحدثهم بذلك، كانوا قد استشهدوا في حروب كثيرة، أو سافروا إلى كندا وأستراليا ودول الخليج حتى صرت في الحي القديم بلا أصدقاء غير أبي وأمي، وحين انتقلت للعمل بالقاهرة تركت أبي وأمي في الإسكندرية، هل يكون انتقالي إلى مدينة جديدة سبباً في ضعف قدرتي على الأحلام؟ المؤكد أن للسيارة الخاصة التي أملكها، والتي تعطلت اليوم، شأناً في ذلك!.

- لا تحزن..

الصوت نفسه يعود لأسمعه، تكلم هذه المرة بسرعة أكبر، لقد استطاع الرجل القصير أن يدفع نحوي وجهه كله، عرق كثير يتقصد على صلته ووجهه، وهو يبتسم لي ابتسامة واسعة ولا يتكلم، لا يجب أن أريك روحي، الترام يزداد ازدحاماً، ويطناً، وأنا الذي ضاعت قدرته على الأحلام، أستطيع أن أتذكر، الذكريات أحلام ضائعة تستطيع أن ترفعني عن الزحام وتنزل بي في محطتي عبر الأثير المخملي بهدوء وسلام.

تذكرت صديقي الوحيد الذي لا تزال ملامحة باقية، ذلك الذي لم يصبح شاعراً كبيراً كما كان يود أن يكون، ولم

يصبح شاعراً من أي نوع، جاعني مرة متعباً يشكو غناه مع
أبيه المسن الذي فتحت عليه الشيخوخة نوافذها وأبوابها،
وكيف يجب نقله مرة كل يوم إلى المستشفى؛ لتلقي العلاج ثم
العودة إلى البيت في محاولة يائسة لتأجيل الموت المؤكد. ثم
سكت طويلاً وقال إن الإنسانية كانت ستكسب كثيراً لو جعلت
منذ بدايتها القبلية وليس الجماع وسيلة للإنجاب، لو كان ذلك
قد حدث لتعدلت أمور كثيرة، أقلها أنه لن تكون هناك
ضرورة للثياب، الداخلية على الأقل، آخر حصون المرأة،
ولاخفى من حياة النساء التمتع والدلال ، وانتهت أغاني
كثيرة هابطة، وأمثال شعبية لا قيمة لها، وكانت المرأة التي
ستعيش حذرة أن يخطف منها الرجل قبله في أي وقت، كانت
ستقدم نفسها إلى الرجل بسهولة، ولا بد أن كلمة سفاح
ستنتهي من المعاجم؛ لأن المرأة الواحدة يمكن أن يقبلها أكثر
من رجل في اليوم الواحد وبالطبع ستختفي جرائم
الاغتصاب، وسيصبح الزواج ألقه مهمة على وجه الأرض..
قال ذلك كله بسرعة، وظل ينظر إليّ واسع العينين، ولا
بد أنه كان يرى مقدار انعكاس جنونه المفاجئ على وجهي،
لكنني بدوت بارداً جداً وقلت بهدوء...

- بالنسبة لمرض أبيك كان من الأفضل لو أخذت الإنسانية منذ بدايتها نظامًا آخر، أن يولد الإنسان شيخاً ثم يموت طفلاً، في هذه الحالة كان الأبناء يستطيعون حمل الآباء بسهولة إلى المستشفيات ، بل ربما صار ذلك عملاً جميلاً.. وتذكرت الضحك الشرس لصديقي ذلك اليوم، ولي، أيضاً..

- كان ذلك رائعاً بحق..

سمعت الصوت يعلق على ذكرياتي الشخصية من جديد، أمسكت به هذه المرة، إنه الرجل الأصلع المنضغط بيني وبين ظهر الرجل الذي أمامي الذي بدا لي يعاني من إجهاد شديد، وعاد يقول:

- الحقيقة كان يمكن للإنسان الحصول على متع أكثر لو سلكت البشرية طريقاً آخر.

لم أفكر أن أسأله ما إذا كان هو الذي سبق له الحديث فهو يحدثني بالفعل، فكرت في قدرته الفذة على الإمساك بأفكاري وذكرياتي رغم عدم حديثي بصوت عالٍ لنفسي أو لغيري، لكنني أحسست بنوع من الرضا نحوه، وآخر

عهدي به أني رأيته ينسحب من بين الزحام بصعوبة، ورأيته يصل إلى الباب الخلفي، ورأيته يلوح لي بيده الصغيرة يودعني، ورأيته يمشي يكاد يتدحرج فوق الأرض من فرط قصره، ورأيته وادع الملامح جدًا، ورأيت الطيبة ذاتها مجسدة فوق صفحة وجهه، وأحسست بأنه شخص ودود وأنني أعرفه منذ زمن بعيد وأن صوته أليف إلى روحي وربما التقينا مرة من قبل في مكان هادئ، حديقة خالية أو جامع، وكادت الدموع تنسال من عيني حزنًا، أو حبًا ، فكيف تقولون إنني قفزت خلفه، ورفعت من الأرض حجرًا نزلت به على رأسه، وإنني وقفت جوار الجسد المهشم الرأس أضحك وأصرخ باسمه الذي لا أعرفه...

١٩٩٢

الطريق والنهر

لا يعرف ما إذا كان النهر الذي يراه على يمينه هو نهر النيل أم فرع صغير من النهر ظهر فجأة في هذا المكان لكنه، كما يحدث في كل مرة، ظل يسرع بسيارته وهو يعرف أنه سيعود إلى نفس البقعة التي عاد إليها الآن، وسيشعر بنفس الارتباك..

لماذا يندفع الإنسان كثيرًا إلى الخطأ في اللحظة نفسها التي يفكر فيها في الصواب ويدركه؟ هذا ما يحدث له كلما زار صديقه الذي يسكن "بالمطرية" فما يكاد يغادر بيته ويفكر أن يعود إلى "إمبابة" مخترقًا القاهرة من الوسط، حتى ينحرف ليدور حول القاهرة آخذًا طريق الكورنيش الطويل والسريع، والذي عند هذه البقعة فيه، يكتشف أنه لا يستطيع الانتهاء منه، فهو يعبر تحت هذا النفق المنخفض ليصعد فوق هذا الكوبري الصغير، ليعود بعد قليل إلى نفس النفق الذي

يعبره ليرى نفس الكوبري.. لا أحد يقابله في الطريق ليقف يسأله، لا شرطي مرور، الوقت تجاوز منتصف الليل، الجو بارد، ابنه الصغير الذي يصحبه معه دائماً نام على المقعد المجاور، يقين هادئ، حاسم، يتسرب إلى روحه بأنه سيمضي ما تبقى له من العمر ضالاً في هذا الطريق، يتوقف بالسيارة جوار النهر الذي لا يعرف ما إذا كان هو النيل أم فرع جديد منه نشأ فجأة، ترك السيارة وتوجّه ناحية الماء لينبول، رأى فوق الماء بخراً أبيض، وأضواء بعيدة على الشاطئ الآخر، أضواء أليفة إليه، يعرفها ولا يعرف كيف يصل إليها، ورأى قريباً منه شخصاً يقف ويتقدم، شخصاً كان يجلس على حجر قرب الماء ويلفه الظلام والضباب، ارتبك للحظة لكن الشخص تقدم أكثر فبدا له شاباً صغيراً يبتسم في وداعة، وتزداد ابتسامته كلما اقترب..

- مساء الخير .

- مساء النور . من فضلك هل يمكن أن تدلني كيف

أصل من هنا إلى إمبابة؟

ابتسم الشاب وقال:

- لا توجد مواصلات الآن.

- معي سيارة .

تمهل الشاب قليلاً وقال:

- سأركب معك، أنا ذاهب إلى هناك.

تركوا الشاطئ إلى السيارة، ابنه الصغير ينام على المقعد الأمامي ، وهذا الشاب سيجلس خلفه، ماذا يحدث لو قتله؟ يمكن جدًا أن يقطعنه من الخلف، سيكون سهلاً للغاية، لكنه لم يستطع التخلص من الشاب، ركبا وركب الصمت معهما.

مشى بالسيارة على مهل لا يكف عن إختلاس النظر إلى المرأة المعلقة أمامه بعد أن حركها بحيث تكشف له الشاب خلفه، وجد الطريق سهلاً بعد ذلك، وإن لم يستطع أن يدرك تمامًا كيف خلاص به الشاب من البقعة الجهنمية التي ظل يدور فيها، يرى الآن كوبري إمبابة فيشيع في روحه الأمان كمن عاد إلى بيته بعد تيه طويل، راح يعبر الكوبري فرحان لكنه حين نظر يساره ليرى البحر المرتفع فوق ماء نهر النيل العريض لم يرى إلا الأرض السوداء المظلمة هزاً رأسه ليخرج منها أي خيالات ممكنة لكنه سمع ضحكة رفيعة تأتي

من خلفه، نظر في المرأة فوجد الشاب يضحك وقد ضاقت عيناه بشكل غريب وامتد وجهه فصار خطماً، وفوجيء أيضاً بانتهاء الكوبري وبأنه قد دخل بالسيارة في طريق طويل يتوسط رمالاً لا نهاية لها وعلى الجانبين وأمامه مباشرة أشجار عالية يكاد يصطدم بها ولا يصطدم فهي تقفز أمامه تسبقه، واستيقظ ابنه يصرخ فرعاً من حيوانات كاسرة يراها، لكنه هو لا يراها، فلم يجد أمامه إلا أن يصرخ في الولد ليصمت، وصمت ورأه يتضاقل على المقعد، ورأى أمامه في المرأة خطم الشاب يطول وسمع صوته يضحك أكثر وحاول إيقاف السيارة فلم تقف، يستدير بها فلا تستدير، وراح يقفز فوق المقعد قفزات سريعة تتناسب مع قفزات الأشجار أمامه التي يبدو له مع كل قفزة أنها ستصطدم به وهفت نفسه إلى ضوء الصباح، وقال في ضراعة بالغة أرجوك.. لكن لم يسمع إلا ضحكات رفيعة كسكين..

١٩٩٣

الضربة القوية

"تملكني الغيظ" فضربت بذراعي الهواء الذي انفتح إلى
الجانبين وسمعت صوته، صوت مرور ذراعي بين الهواء،
أعمق وأعرض من صوت السوط الذي يفرقع في الفضاء،
ولم يعد الهواء إلى حالته الأولى، انزاح إلى الجانبين، وارتفع
من الجانبين قائمان أبيضان ثلجيان يتقطر على كليهما ماء،
دم أبيض تنزل قطراته ببطء وعلى مهل، وبعذاب عميق،
وتتحدّر على القائم الحائط، العالي، الذي صار على يساري
ويميني تاركاً فراغاً هو الذي صرت أمشي فيه فراغ فارغ
جعلني أخلع ثيابي العليا ثم السفلى محتفظاً بما يستر عورتي.
الحقيقة أن ما يستر عورتي موجود، ولا أشعر بوجوده،
ففكرت خجلاً أن أعود لكنني وجدت نفسي أمضي إلى الأمام،
إلى أين كان عليّ أن أعود؟ لا أعرف. إلى أين أمضي إلى

الأمام؟ لا أعرف لكني أمشي ببطء أشد النفس كما كانت
أمي تقول عن المرضى قديماً..

ما الذي جعلني أضرب الهواء هذه الضربة القوية التي
فلقته اثنين وحولته إلى حائطين من زجاج. لا أذكر الآن سر
ذلك الغضب الهائل الذي تملكني، إنني أرى الآن كائنات
غريبة تمشي أمامي، قليل منها يضحك لي وأكثرها يبكي ،
أقلها في ثياب بيضاء وأكثرها في ثياب سوداء، إنها كائنات
من فئدة وفتيات صغار، الفتيات ترتدين الأبيض الزاهي،
والفتية يرتدون الأسود القاتم، كلهم يحملون وجوهاً بريئة ،
الفرحون منهم يسعدونني، فأقفز أطولهم، ولا أطولهم وأحزن.
الباكون منهم يحزنونني.

أكاد أبكي من السعادة كما أكاد أبكي من الهم ، ثم ما
هذه الوجوه الكثيرة التي تشبه وجهي والتي ركبت على
أجساد أكثرها نحيل وأقلها سمين؟

إنها أيضاً تمشي أمامي، النحيل منها شارد، والسمين
منها بطيء وكلها تنتظر إلي وأكثرها يزور عني، بعضها
يتقدم نحوي ضاحكاً يقدم لي حفنة هواء ويضع كفيه أمام
أنفي ،أفأستشوق عبير الياسمين، لكن سرعان ما يبتعد هذا

البعض القليل أمامي فأعود إلى الاختناق، وأحاول بقوة أن أعدو خلف الجميع الذين يجرون أمامي الآن، لكنني لا ألحق بهم، أحاول الخروج من بين الجدارين الأبيضين الزلقين الذين راحا يرقان ويشقان ثم تشققا فتدخل في شقوقهما رعوس وأجساد مما ظهر لي وتختفي وأظل وحدي لأنني كلما اقتربت من أحد الجدارين عاد مصمتاً أملس كما كان. لقد ترك الجميع ذلك الكائن الوحيد الآن، جميل الطلعة، المستعصي على الإدراك، والذي لا أستطيع أن أمسك بصورته أصفها لك، وأحيط بجسده وأبعاده، إنه ليس جميلاً كما أتصور. هو لامع كالمرمر يترجرج كالزئبق أسمع صوته ولا أدرك ما إذا كان هو الذي يصدره حقاً أم ذلك الفراغ الأزلي الذي حبست فيه تعال، تعال، تعال يا حبيبي. يا للصوت الجميل الذي يشدني إلى الأمام ويملؤني بالفرح فأشد قامتي وأمشي ثابت الخطوة ناسياً أن الفراغ يخنقني واثقاً أن الله يمنحني القوة والنفس رغم العدم المحيط، وأمد يدي إلى يدي الكائن المرمرى الممدودتين أمامي لكن لا يبدو أنني سألحق به، ويظل صوته يجذبني وأنا أتبعه نشوان مسحوراً داخلاً في فراغ جديد أوسع من ذي قبل تخله أشعة

من كل جانب تنكسر ألوانها ماسًا وزمردًا وياقوتًا وفيروزًا
وتقرش في الفضاء عرائس البهجة، ثم صار عليّ أن أقف.
انتهى صار الصوت الجميل أكثر خشونة. زاعقًا أجشًا،
انتهى اختفت الأشعة، لم يعد أمامي إلا سم إبرة، قوة غشيمة
تدفعني للنفاذ منه، خلفه وجدت حفرة عميقة لا أرى قرارها
من كثرة الغبار السابح فيها، أنا الآن أقف على شفا الحفرة لا
أستطيع أن أبتعد، أسمع صوت آلام. صوت واهن عميق لا
يكاد يصل إليّ. صوت النزع الأخير لأعداد لا حصر لها،
إذن هي النهاية، وكل ذلك لأنني ضربت الهواء بذراعي، لقد
ضرب موسى عليه السلام البحر بعصاه يومًا، إلى هذا الحد
خانني الهواء، لقد تملكني الغيظ، ولقد فعلت ذلك كثيرًا من
قبل، لماذا تغيرت الأحوال هذه المرة؟ وماذا يحدث لو
ضربت الهواء مرة أخرى؟ سيعود بي إلى حالتي الأولى،
وسعود إليّ ثيابي العليا والسفلى، وسينزاح عني خجل
العراة، وسأعود من سم الإبرة ثم من الفراغ، لكن لم يعد
هناك هواء لأضربه من جديد وليس للفراغ قوام، ليس ثمة
وجود للعدم.

سماء زرقاء وبحر من اللازورد

(١)

صيد العمر

يحب الفضاء الأبيض، للسبب الذي من أجله يحبه الناس جميعًا: الاتساع، وراحة النفس، وجلاء النظر، فإذا التحم الفضاء الأبيض بالسماء الزرقاء وهي خالية من السحب السود، وبالبحر اللازوردي وهو هادئ الموج، وركبت الشمس وانتشرت في البياض أشعتها الحنون، إذا تحقق ذلك وهو غالبًا ما يتحقق في الخريف والشتاء، شملته النشوة العجيبة التي تجعله ريشة تلتحق بالأنثى لقد أعلن الحب على الإسكندرية منذ طفولته، لكنه غادرها في شبابه وراء الفتاة القاهرية التي أحبها على الشاطئ، ولم يعد إلى الإسكندرية إلا في الصيف، غير مستمتع بها، مندهشًا من قدرة أولاده الصغار، على الاستمتاع بالصخب والزحام، والتلوث الذي شمل الماء والأرض والهواء، فانفرد لنفسه بفضاء الصباح الباكر قبل أن تزدحم المدينة بأنفاس الحركة الصخابة

للمصطافين الغرباء وأبناء المدينة الذي ازدادوا كثيرًا في الصباح الباكر، على الشاطئ، يستطيع أن يمسك بالفضاء الأبيض وسماء اللازورد، وهكذا عاد إلى حرفة الصيد التي هجرها منذ استقر في القاهرة.

البحر دائماً، أو في معظم الأيام، يستيقظ عفياً في غبش الفجر، وهو يجلس عادة مع عدد قليل من هواة الصيد صامتين، الشمس تصعد خلفهم بتؤدة، بعد ساعة ستصعد بقوة، هو يعرف ذلك أكثر من غيره، عادة يجلس كبار السن قريباً منه، رجل أو اثنان، الشباب الأكثر عددًا يتباعدون، كبار السن يتحركون بصعوبة على الصخور الحشوية، أجسادهم ضامرة، سيقانهم رفيعة يتهدل لحم ربله الساق كشيء زائد علق بالقصبة، الرجل المسن الذي تعود الجلوس جواره يرفع دائماً صنارته فتخرج خالية، حتى عندما يغيب أو يختفي، يجلس جواره رجل مسن آخر يلقي بصنارته ويرفعها بلا صيد، لا تفارق الابتسامة الرجال المسنين كأنما جاعوا للهو لا للصيد، فكر مرة في المصادفة الغريبة التي تجعل كبار السن يقتربون في جلوسهم منه، ربما لابتعاده عن سني الشباب، ربما للمشيب الذي ضرب في شعره بقوة، على

أي حال لم يجد تفسيرًا مناسبًا فاكتفى بالابتسام، لكنه لم ينقطع عن التفكير في إخفاق المسنين في اصطيد الأسماك في أكثر الأوقات.

"سمك صغير صعب أن يمسك بالصنارة" يقول أغلبهم وهم ينظرون إليه مبتسمين، لا يعلق؛ لأنه يصطاد السمك الصغير والكبير، وكذلك يفعل الشباب، يعود إلى البيت مع بداية ازدهام الشاطئ.

أول ما يقابلة المرأة الموضوعة في الصالة فينظر فيها تلقائيًا، يبتسم، لا يجد إجابة لسؤاله عن اقتراب المسنين في جلوسهم منه، أو يجدها ويتغافل عنها، لكنه لم يجد أبدًا إجابة عن سبب إخفاقهم معظم الوقت في الصيد، وإصرارهم، واحدًا وراء الآخر، على الصيد في الصباح الباكر، ذلك يحدث طوال إقامته الصيفية في المدينة التي أحبها قديمًا، ويبحث الروح في هذا الحب بخروجه الصباحي المبكر، رغم أن البحر عادة لا يكون هادئًا والأمواج لا تكون رفيعة عند الفجر، وصوتها غالبًا مخيف، هل هناك موعظة ما وراء إصرار المسنين على الاقتراب منه، وإصرارهم على الصيد بلا صيد؟ هل يختزلون له الدنيا في عمل جميل...؟.

(٢)

الفتاة الصباحية

الفضاء الأبيض يحمله إلى طبقات من الأثير دائماً،
يحدث ذلك بسرعة في الصباح، وبلطف عند الظهر أيام
الشتاء، رغم أن الفضاء الأبيض في الصباح يختلط بالريح
الطرية وزبد الموج، وفي الظهيرة يمتزج بالصمت، لكن في
الصباح يمازجه شعور آخر، أجل ، إذا أنت استيقظت مبكراً
في الإسكندرية، ووقفت على شواطئ البحر وأحاطتك برودة
الليل اللذيذ وهي تنسحب، لشعرت بالزوال الرابض في سقف
العالم أكثر مما تشعر به عند الغروب ، ولشعرت بأن الضوء
يرمح في رأسك، لقد تم انتزاع المخ منه وصار خلاءً،
لنسيت أن خلفك شارعاً وعمارات عالية لعل بيتك بينها،
أو أن حولك عدداً من الناس خلقهم الله منذ سنين مثلك ولم
ينزلوا من السماء الآن! باختصار تنقطع الصلة بينك وبين
الماضي والمستقبل وتبدو كما لو أنك تستقبل الحياة لأول مرة
ولا تدري كيف تنقل قدمك على أرضها؛ لذلك كله تراوده
الرغبة كثيراً في الهروب، الصيد وحده لا يكفي لذلك يصطاد
يوماً ويأخذ سيارته يرمح بها على طريق الكورنيش معظم

الأيام، وفي الصباح الباكر أيضاً، تبدو السيارة وكأنها تمشي داخل الزمن. آلة زمن تتوغل به في المستقبل الخالي حتى الآن، السرعة الفائقة التي يرمح بها تجعله في المستقبل مغلفاً بالهواء ورذاذ الماء ولا يرده إلى الحاضر إلا منحنيات الطريق الحادة، وفئة وحيدة تنتظر أن يلتقطها أحد بسيارة ملاكي أو تاكسي، دائماً يفاجأ بها قريبة منه فلا يستطيع الوقوف بالسيارة إلا بعيداً فلا يقف . في أكثر من صباح يقرر أن يقود السيارة على مهل حتى يلتقط الفتاة الجميلة الصغيرة، لكنه ما يكاد يتحرك بالسيارة حتى ينسى كل شيء إلا أن ينطلق بها في جنون، دالخاً في أثير المستقبل الخالي، ولا يدرك الفتاة إلا وقد صارت خلفه بمسافة كبيرة فلا يعود إليها، إنها لا تقف في مكان واحد تنتقل بطول الكورنيش، تتغير، لكنها دائماً جميلة وهي تقطع كل هذا الفضاء الأبيض تحت السماء العريضة الزرقاء وأمام البحر الواسع اللازوردي الذي يستيقظ عفاً، ينتهي الصيف كل عام ولا ينجح في الوقوف أمامها مرة، يظل يطويه الأثير .

(٣)

قيامه الماضي

ابنه يحب الصيد بجنون لكن في المساء يذهب دائماً وحده، بدونه، أو مع أصحابه، ويعودون قبل الفجر، ولا يفكر مرة في اصطحابه معه لأنه يكون قد نام منذ قليل، يذكر قبل زواجه أنه كان يحلم أن يكون له ولد ويخرج معه في رحلات خلوية يعلمه صيد الطير وصيد السمك، ويمرحان ويلهوان معاً، ربما كان ذلك من أحد أسباب زواجه، ولعله كان السبب الرئيسي، لكن الولد منذ استطاع الخروج إلى الشارع وحده، ابتعد عنه وارتبط بأصحابه.

فاجأه الولد برغبة في الاستيقاظ مبكراً، سأله:

- تريد أن تصطاد معي.
- لا، سأذهب مع أصحابي، قررنا أن نغير المكان والوقت، يتحدثون عن لسان في الماء قبل كازينو الشاطبي يحوي أنواعاً وكميات كبيرة من السمك حوله، سنجرب، هل تحب أن تأتي معنا؟

خرج معهم عند الفجر، ابنه وصديقان له.. لا يعرف
الخشوع من لا يستيقظ ويتطلع إلى الدنيا عند الفجر، لا
يعرف الرحمة أيضاً..

وضعوا أدوات الصيد في حقيبة السيارة، أدار الموتور
فارتفع صوته يشق السكون النائم. كان الأولاد يتبادلون
الابتسام في خجل، والكلام همساً، لقد تحركوا بعض الوقت
حول السيارة في انتظارهم لأوامره بالصعود إليها، سوف
يرتفع صوتهم بعد قليل ويشقون جلال الصباح القادم، تحرك
بالسيارة على مهل، لم يكن يليق أن يرمح بها الأولاد
الصغار معه، لا بد من وقار يليق بالأب، ولا مانع أن
يحدثهم عن أخطار السرعة المجنونة.

في الطريق لم يقابل إلا أعداد الصيادين الهواة القليلة
متفرقة في المناطق الصخرية المتباعدة لم ير المسنين الذين
يقترّبون منه دائماً في المكان الذي يصطاد فيه بشاطئ
المندرة، لم يقابل الفتاة الوحيدة في الطريق رغم أنه يمشي
بالسيارة على مهل، لعل ذلك هو السبب أيضاً، الأدق هو أن
وقار الأب الذي تلبّسه جعله لا يرى ما كان يرى! لكن على
اليسار كانت العمارات قائمة في أماكنها، مع التقدم في

الطريق بدأت تظهر بعض المفاهي الساهرة، عندما اقتربوا من الشاطبي كانت "قهوة والي" لا تزال ممثلة بالرواد الذين يلعبون الطاولة ويشربون الشيشة طوال الليل.

- ها هو اللسان.

قال ابنه ، فكر هو في مكان تقف به السيارة، دخل بها إلى شارع جانبي أفضى به إلى الشارع الخلفي الموازي لشارع الكورنيش، وأمام أول بيت توقف.

نزلوا من السيارة، فتح حقيبتها؛ فأخذ الأولاد أدوات صيدهم وانطلقوا يسبقونه إلى البحر، هو لم يستطع أن يتحرك طعم الهواء ورائحته يبعث في روحه حنيناً عريضاً.

البيت الذي توقف أمامه يرتفع إلى ثلاثة طوابق، الطابق الأول المواجه له مهدم الجدران بطريقة تشي أن صاحبه سيحوطه إلى محلات، الطابقان العلويان خاليان مغلقا النوافذ، إلى اليمين باب البيت الصغير الحديدي خلفه السلم الضيق الحديدي الدائري الذي يفضي إلى أبواب الشقق من الخلف.

كل شئ قديم حائل، حتى شجرة المانجو التي لا تزال عالية كما هي لا يبدو أن ثمة ثماراً عالقة بها، شاخت

الشجرة من الإهمال ، هو يعرف البيت ويعرف طعم الهواء ورائحة الأرض والجدران حائلة البياض، لكن قريباً منه مقهى صغير لم يكن موجوداً من قبل يستطيع أن يجلس به، يحتاج حقاً للجلوس أكثر ما يحتاج إلى شاي الصباح.

بالمقهى لم تنزل عيناه عن البيت، شرفة الدور الثاني الواسعة كما هي، وكذلك شرفة الدور الأخير حيث كان يسكن مع زملائه طلاب الأرياف.

لكن الدور الثاني وشرفته هو الذي يشد عينيه أكثر، هو يعرف أن زملاءه تخرجوا معه في الجامعة منذ عشرين سنة وانتشروا في البلاد، أحياناً يلتقي بواحد منهم أو يسمع خبراً عنه، لكن لا يعرف شيئاً عن سكان الدور الثاني.

الفتيات الصغيرات الجميلات والنساء الضائعات اللاتي كن يعدن مع الصباح ليجلسن في الشرفة ينشرن شعورهن تحت الشمس الفضية، كان من السهل أن ينزل هو أو أي من زملائه لطلب فتاة أو امرأة من بينهن لكنهم لم يفعلوا أبداً، والنساء أيضاً لم يصنعن إليهم، كن يخرجن مع المساء ويعدن مع الصباح متعبات يجلسن تحت الشمس قليلاً بعد الحمام والاعتسال ثم يدخلن إلى الغرف ويغلقن الأبواب

والنوافذ، هذا شارع تانيس العتيق ذو البيوت الواطئة،
لا يرتفع أكثرها عن ثلاثة أو أربعة طوابق، هذا الشارع
الذي كان يمتلئ بحركة الطلاب والنساء الضائعات والفتيات
يبدو له خاليًا ساكنًا في الصباح، لا يبدو أن أحدًا يسكنه الآن
لا بالصيف ولا الشتاء لا يصدق، لكن هذا هو ما يراه.

كان هو وزملاؤه مثل كل الطلاب ساكني الشارع
يفتحون شققهم للنساء الضائعات، لكن لا هو ولا أحد من
زملائه فكر في واحدة من الدور الأسفل، كان هو أو أي من
زملائه ينزل إلى الطريق ليصعد بأول من يقابلها وتقابله،
وكانت نساء الدور الثاني يرين فيبتسمن ولا يعرضن أنفسهن
عليه أو على زملائه.

شرب الشاي ونهض لا ليلحق بابنه وصاحبيه لكن
ليمشي قليلاً فوق أرض الشارع يشرب من الهواء القديم
الأيف المشبع بالرطوبة المنعشة ويترك أمواج الذكريات
تسقى لها قنوات في قلبه.

يرتفع حوله صخب زملائه ، وضوضاء النساء والفتيات
العائدات في الصباح وتصعد إليه روائح عطورهن الرخيصة
وضحكاتهن المحلولة من تعب الليل ويمشي باسمًا يسأل نفسه

لماذا حقاً قام كل منهم بدور الساكن المحترم الأعوام الأربعة
التي عاشها في هذا المنزل، هو وأصحابه
أو النساء الضائعات الكبيرات والصغيرات؟ وهل لو لم يقم
كل منهم بهذا الدور أمام الآخر، كانت الحياة قد أخذت طريقاً
آخر وطعماً آخر؟

١٩٩٣

سُفن قديمة

لاحظت أنه يتكلم إلى ابنه دون أن يرفع عينيه عن
زجاجة الجعة فوق المنضدة البيضاء الصغيرة، ولا أعرف
هل كان الولد يصغي إليه أم لا. لقد بدا لي مبتهجا بشرب
زجاجة «السن أب» يصوب عينيه من خلف الزجاج الشفاف
إلى الأطفال المبتهجين في الشارع.

كان اليوم عيداً. وكنت أرسل عيني إلى أبعد من الشارع
والأطفال، إلى البحر المترامي في كسل صافي الزرقة، فوقه
الفضاء أبيض بلا نهاية، والسماء البعيدة تحتها سحب قليلة
خفيفة هشة تتحرك بلا نظام، وتتمزق بسلسلة فتتبعثر قطعاً
صغيرة تسبح تحت السماء.

صلعة الأب كبيرة متحدة مع جبهته العريضة، الرأس
أكبر من ذلك الرأس الذي عرفته، ربما لاتساع الصلعة،
وربما لازدياد النعمة! لكن الشارب العريض كما هو فوق

الشفة العريضة للقم الواسع، والأنف في مكانه، فقط ازدادت
قاعدته اتساعاً!

لا يزال الأب يشرب الجعة مركزاً عينيه على الزجاجاة
والجرسون لم يعد إلى الظهور، والمشرب خالٍ إلا منا
والوقت ظهر، ليس هذا الموعد المناسب لشرب الجعة، دائماً
أختار أنا الموعد غير المناسب، أحب أن يكون المشرب خالياً
أو شبه خالٍ، تلك عادتني عندما أكون وحدي في بلد من البلاد
لا يسلي وحدتي إلا انفرادي! أستطيع أن أتفحص جدران
المشرب واللوحات الجميلة على الجدران التي عادة ما
يصرفنا الزحام عن تأملها ، وفي كل الأحوال أجد تاريخ
المكان يتجلى أمامي خارجاً من الصور، ومن الأسماء التي
يكتبها أصحاب المحلات الأذكىاء للمشاهير الذي زاروا
محلاتهم، رأيت ذلك في باريس وفيينا ونيويورك وشيكاغو
وموسكو أيضاً، كثيراً ما أفكر أن أصحاب هذه المحلات
شطار أو نصابون، إذا قلت إنه هنا كان يجلس "جان بول
سارتر" كما هو موجود في مقهى "الدوماجو" في بوليفار سان
جيرمان. فهل سيناقشك أحد في ذلك؟ هل سيعترض أحد على

ذلك؟ سيحدث العكس، ويتواطأ الزبون معك ليجلس مكان سارتر ويقول ذلك للآخرين.

إن السعادة هي الهدف الحقيقي للإنسان، حتى لو راح يحققها للآخرين، وإنا نبحث عن السعادة ولو عن طريق الكذب، لكن هذا المشرب السكندري العتيق لا يعلق صوراً للمشاهير. رواده يعرفون أن صاحبه يوناني ترك الإسكندرية إلى أثينا في أواخر الخمسينيات، الحقيقة أنه بدأت موجات هجرة واسعة من الإسكندرية بعد حرب ١٩٥٦ كان اليهود هم أول المهاجرين وأكثرهم، ولا أحد يعرف لماذا هاجر اليونانيون والإيطاليون والقبازصة، لقد احتفظ صاحب المحل الجديد، السكندري المصري، بالصور القديمة للمحار وأسماك البحر والسفن الشراعية القديمة مبحرة في الأفاق تحت الغيوم، وسفن أخرى في يوم صحو ترقص حولها الدلافين لاهية .

كنت أحب البحر وأحلم بالعمل فوقه لكن لم يتركني البر..
هكذا كان .

- لحضرتك أخ اسمه إدريس؟

- أنا إدريس .

هذا ما حدث بالضبط. سألته السؤال الذي ظلمت بعض الوقت متردداً فيه وأجاب هو في اللحظة نفسها كمن كان في حاجة إلى ذلك! ابتسمت وشعرت بارتياح غريب برغم أنني لم أكن متضايقاً من قبل!

- لقد عرفتك من صوبتك.

- لكنني لم أتحدث.

- لقد أحببتني على الأقل.

ضحك ضحكة قصيرة واحمر وجهه. سألته:

- هل تعرف كم مر من السنين؟

- عشر .

- تسع.

عاد يضحك ويحمر وجهه، قلت:

- لم تكن قد تزوجت بعد.

ورأيت عدداً من الأطفال يتطلعون إلينا من خلف الزجاج، عيونهم صغيرة لا تستقر، كانوا في البداية طفلاً

واحدًا انضم إليه آخر ثم ثالث ثم راحوا يزدادون. يتطلعون
إلينا وبيئسمون في دهشة حقيقية.

- كانت وأنا في سنهم أفعل مثلهم.

- الأيام تدور.

- لكنني كنت لا أكتفي بالنظر.

- الأجيال الجديدة جبانة.

أدهشتني إجابته، وكان ابنه يبادل الأطفال الابتسام،
وسكتنا قليلاً ثم قال:

- لقد طلقتهما في اليوم التالي لوصولي.

- من هي؟

- زوجتي. ألم تسألني عنها الآن؟

لم أكن قد سألته لكنني قلت:

- أجل.

- سافرت أعمل في ليبيا وعدت لأجدها على علاقة

بشخص آخر. أخذت الولد معي.

أشار إلى ابنه الذي كان لا يزال مستغرقاً في مبادلة
الأطفال الابتسام واستمر يتحدث:

- حضرت من ليبيا يوم سبعة وعشرين وطلقتها يوم
ثمانية وعشرين، أنا لا أنسى ذلك اليوم.

كان الولد قد تركنا فجأة وخرج ليقف يتحدث مع
الأطفال ويشير إلينا معهم ، ويبتسم مثلهم وتزداد ابتسامتهم
من خلف الزجاج، وتشرق أكبر. فجأة تناقصوا، شيئاً فشيئاً
تناقصوا حتى صاروا ثلاثة مع الولد ، ثم عادوا يزدادون،
وهكذا مثل موجات متعاقبة كانوا، ودائماً أنا أتجاوزهم بالنظر
خلف الشارع إلى البحر الذي يمتد سلساً هادئاً في مثل هذه
الأيام الشتوية الدافئة، وأحسست بالضيق فجأة من حديثه
وسألته:

- هل ستعود إلى ليبيا من جديد؟

- ربما لكنني افتحت محلاً للأثاث في شارع خالد بن
الوليد، المحل القديم الذي بعته قبل الجواز، كان
يخسر كثيراً.

- اذكر ذلك وأذكر أنك بعته لتحصل بثمنه على شقة في حي أرقى.

- هذا صحيح لقد ساعدني والدك كثيرًا. إنني لا أنسى فضله عليّ ولم تكن هذه حقيقة. لقد مات والدي منذ عشرين سنة.

واستمر هو يتحدث:

- لولا والدك ربما كنت خرجت من المنطقة مديونًا ملعونًا، ثم إن والدك أيضًا حذرنى من تلك الفتاة.

- أي فتاة؟

- التي صارت زوجتي وطلقتها، التي سألتني عنها وحدثتك الآن.

وسكت هو وأنا بدوري سكت ورحت أتطلع إلى ابنه والأطفال الذين ينظرون إلينا من خلف الزجاج، ثم تناقصوا حتى بقي الولد وحده وفي اللحظة التي كاد فيها يعود إلينا ظهرت امرأة شابة وقفت تتحدث معه انحنت عليه وقبلته، ثم أشارت إليه أن يخرج إليها بسرعة فترك حسابه على المنضدة وخرج.

فعل ذلك بينما أنا مشغول بالنظر إليها، لم يكن من الصعب أن أتذكرها. لقد تهطل صدغها قليلاً وزاغت عينها وذبلت كثيراً ورأيت شفيتها باهتتين متشققتين وهي تبسم لي من خلف الزجاج، كانت ترتدي "جوب" أزرق قديماً فوقه "بلوفر" أبيض واسع، كانت أمي تقول دائماً عنها: "ظهرها ممسوح وناشفة" لكنني كنت أميل إليها كثيراً، وأنتظر ابتسامتها من البلكونه العالية في الدور السابع، أنا الواقف فوق السطح، كانت الابتسامة تتألق في الشمس، ويبدو لي أننا معلقان في فضاء بعيد لن ننزل منه إلى الأرض، لكنها كانت تسرع بالدخول من البلكونة ، وتتركني معلقاً في الفراغ وحدي، لا أنسى طعم البهجة التي كانت تشيع في صدري هي نفس البهجة التي تسالت إليّ الآن بعد الابتسامة الواهية من الشفتين المتعبتين، لكنها ليست بنفس الاتساع، ولا العمق، أجل قلّت حلاوة الأشياء ولم تعد كما هي ولم يبقَ على حاله سوى الضجر .